(٣)

في مفترق الطرق

(رحلة الى بغداد)

- مناخ العصر .
- حديث الذهاب .
- في خضم العاصمة .
- حديث الإياب .

- موت الأم .

obeikandl.com

نتمهل عند مفترق الطرق مع أبي العلاء ، في الرحلة البغدادية التي عاد منها بقراره الصارم بالعزلة والحرمان .

وفي حياة كل أديب ـ وأكاد أقول : كل إنسان ـ حادث حاسم يغير مجرى حياته ومُتَّجه مساره ومصيره .

ومن قديم قال شاعرنا الجاهلي « امرؤ القيس » حين بلغه ، وهو في مجلس شرابه ، مصرع أبيه حُجر الكندي :

« اليوم خمرٌ ، وغدا أمر »

أما أبو العلاء فليس في حياته خمر ولا ثأر . وإنما الذي كان فيها رحلة إلى بغداد ، كانت بصريح قوله وشهادة سلوكه وإجماع مؤرخيه : الحد الفاصل بين شطرين من حياته ، إنسانا وأديبا ومفكرا .

على تفاوت ما بين مؤرخيه ومترجميه ، في مدى العناية بهذه الرحلة الفاصلة : جاء بها بعضهم خبراً عابراً في سياق التتابع الزمني لأحداث

حياته ، وآخرون منهم التقطوا أخبارا عن الرحلة ، تتعلق بما شُغلوا به من أمر عقيدته ، أو ما بهرهم من عجيب ذكائه ونادر حفظه .

وجمع « ابن العديم » – ت سنة ٦٦٠ هـ – ما صح لديه من الأخبار والمرويات عن الرحلة ، في فصل من كتاب « الإنصاف والتحري » عنوانه : « في ذكر رحلته إلى بغداد وعوده إلى معرة النعمان ، وانقطاعه عن الناس وتسمية نفسه : رهين المحبسين – رحمه الله » .[٩]

وأرى مؤرخيه مع ذلك التفاوت ، لم يعطوا للرحلة تفسيرا مقنعا ، يثبت للنظر الناقد .

أبو العلاء وحده ، هو الذي يعطينا هذا التفسير ، في آثاره التي تؤرخ لنا رحلته النفسية والفكرية مع الدنيا ، وتسجل نبض وجدانه ومنطلَق تأملاته ، منذ وعَى الوجودَ إلى أن نام واستراح ...

ديوان (سقط الزند) فيه شعر الشطر الأول من حياته ، كما ذكر مؤرخوه .

وفي الشطر الثاني على التحقيق ، أملى : الفصول والغايات ، ولزوم ما لا يلزم ، ورسالة الغفران ، وملقى السبيل ، ورسالة الملائكة ، ورسائله إلى داعي الدعاة ...

وبين الشطرين ، في مفترق الطرق ، أملى رسالته إلى أهل بلده عند منصرَفه من بغداد ، ورسالته إلى خاله « أبي القاسم علي » عند أوبته إلى المعرة .

وسائر رسائله ، لا يشق على دارس أن يلتمس الشواهد الهادية إلى

تاريخ إملائها ، ليعرف ما كان منها في هذا الشطر من حياته أو ذاك ..

ومن مقابلة النصوص ، نستطيع أن نتبين أثر الرحلة البغدادية التي أحدثت ذلك التحول الحاسم في حياته إنسانا ، وفي فنه وتأملاته أديبا ومفكرا . ونطيل الإصغاء إلى أبي العلاء وهو يفسر لنا سر تلك الرحلة ، ويقول الحق فيما ذكره مؤرخوه عنها ، وما أهملوه ...

obeikandl.com

مناخ العصر

هذي بضاعُ الناسِ معروضةً
فعاشِروا العالَمَ أو فارقوا
أبو العلاء
(لزوم ما لا يلزم)

ونحتاج هنا إلى نظرة تطل على ذلك العالَمَ الذي خرج إليه أبو العلاء ، لنعرف المناخ الذي تنفس فيه ببغداد .

نظرة من أفق عام ، لا تنعزل فيه بغداد عن الحياة العامة للدولة الإسلامية التي كانت مدينة المنصور عاصمة لها ، منذ أسسها سنة ١٤٥ هـ.

وأبو العلاء عاش ما بين سنتي ٣٦٣ : ٤٤٩ هـ .

وحين ندرس عصره ، نقف به عند منتصف القرن الخامس لا نتجاوزه إلى ما بعد رحيله عن الدنيا .

لكنا نرجع ببدايته إلى حوالي منتصف القرن الرابع ، قبل مولد أبي العلاء ببضع عشرة سنة ، تقديرا للمؤثرات القريبة التي شاركت في توجيه مجرى الأحداث وسير الحياة العامة ، إلى حيث قدر لها في زمن أبي العلاء .

والنصف الثاني من القرن الرابع ، قد شهد بدء انهيار الدويلات الفتية التي قامت في أقطار الدولة الإسلامية ، وكان لها من القوة في أول أمرها ، ما هيأ لها الظفر بالاستقلال الذاتي مع التبعية الرسمية لبغداد ، مركز الخلافة . كما كان لها دور واضح في النهوض بالأقاليم ، في ظل الحكم الذاتي ...

وكان من الممكن ، لو أسعفت الظروف وقبلت سنة الحياة ، أن تقوى الدولة الإسلامية بقوة أقطارها . لكن ضعف السلطان المركزي في بغداد ، عجّل بانهيار الدويلات القوية في الأطراف : إذ كان أمراؤها ملزمين بالحرص على الارتباط الرسمي بخليفة المسلمين ، احتفاظا بالمظهر الديني لقيادة الجماهير . فكانوا يلتمسون السندَ الشرعي بولاء جبري للخليفة ، تدعيما لسلطتهم الإقليمية وكسبا لطاعة الجماهير المحكومة .

ثم إذا مات الأمير ، مؤسس الدولة الإقليمية ، وخلفته ذرية ضعاف ، ضاع التدبير وانهار المُلك ، بعد أعوام قد تُعد بالعشرات ، وليست ، بالتي تُحسب في أعمار الدُول والممالك :

كل قائد يبلغ مبلغ القوة ، يستطيع أن يخرج على الأمير ، إذا اشترى تأييد الخليفة .

وكل مظهر من مظاهر الضعفِ في وُلاة الأقاليم ، يعالجه الطامحون من جندهم ومواليهم ، أو جيرانهم ومنافسيهم ، بضربة باترة يباركها خليفة المسلمين .

وكل عرش يموت أميره ، تتطاول إليه أعناق ذوي القوة ، ولا على القوي أن يطأ الرؤوس ويخوض في الدم ، مادام في حسابه أن تؤيده بغداد بصكٍّ شرعي !

والشعوب بمعزل عن هذا كله ، وإن كانت شرعية الحكم تلتمس من الخليفة ، للسيطرة عليها .

وإنما حسبها ، في واقع الأمر ، أن تتفرج على الصراع الدائر ، ولا فرق عندها بين غالب يحكم باسم خليفة المسلمين ، ومغلوب كان يحكم باسمه كذلك ...

****

والقرن الخامس ، هو الذي شهد ترسخ الإمارات الإقليمية ، تحت معاول الفتنة والتآمر ، ولطمات الدسِّ والكيد ،

والعدو واقف بالمرصاد ، يتربص بها الدوائر .

وقلب الدولة ـ بغداد ـ قد وهَى وتصدَّع ، فهي في عصر أبي العلاء مسرح للفتن والمغامرات ، وسوق للصفقات والمزايدات . ضعُف شأن الديلم القائمين بالأمر فيها ، وتسلط المرتزقة من جند الترك فأكثروا فيها الفساد .

وجلجلت أصواتٌ بِنِحَلٍ دخيلة وملَل طارئة غريبة ، من مثنوية وحلولية وتناسخ وزندقة ... واحتدم الصراع الشعوبي والمذهبي فتاهت

القِيمُ في غبار النقع المثار .

وضرِيت الطبقية : فالثروة في المجتمع المتصدع يستأثر بها أفراد معدودون ، والحقوق الاجتماعية للناس غير مقررة ولا مؤداة ، بل يأكل الأقوياءُ الضعفاء .

ونجم عن خلل الأوضاع الاقتصادية وفساد الأحوال السياسية ، أعراضٌ مرضية : من سوء النظرة للحياة ، وانتظار المباغتات . وظهر سوء الخلقية الفردية فيما شاع من نفاق و دجل ونفعية وصولية . كما ظهر سوءُ الخلقية العامة في تمزق الوحدة والسكوت على المنكر ، وفي تصارع المذاهب والقوى دون أن يكون في الأمر شيءٌ من حقوق مقررة أو قيم ثابتة أو نظم مستقرة أو تقاليد راسخة . وإنما هو التنازع العاري على السلطة والجاه والثراء : بالقوة والاغتصاب ، أو بالمكر والحيلة والنفاق ، أو بالتزلف والتملق والاستجداء . وصار الدين إلى صبغة مذهبية ، تؤثر عليه الأعراض الطارئة ويتغير بتعير الأُسر الحاكمة ، وما أسرع ما كانت تتغير وتتبدل !

****

والحق أن هذا الفساد لم يكن طارئا مفاجئا ، بل كانت له من قديم بذور كامنة ، لبثت طويلا تعمل عملها في الخفاء وتنخر في أساس الدولة ؛ لكنها في عصر أبي العلاء كانت قد نمت وترعرعت ، وآتَت أُكُلَها السامَّ المشئوم .

والحق ، كذلك ، أن أبا العلاء لم يكن قبل رحلته إلى بغداد ، بمعزل عن هذا كله . فمدينة « حلب » من كبريات حواضر الشام .

والشام من قديم يقف بين التيارات المتدافعة : في الجالية كان بين روم وفرس وعرب ؛ وفي العصر الأموي كان بين حجاز وعراق ؛ وهو في عصر أبي العلاء بين العباسيين والفاطمين ، والروم منه غير بعيد .

والمعري يتنفس في هذا الجو ، وعلى بابه تصطخب الأمواج . وقد وُلِد في عنفوان الصدام ، سنةَ أُقيمت الدعوةُ بالحرمين للمُعِز العبيدي الفاطمي وقُطِعت خطبة بني العباس . يلتفت عن يمين فإذا العراق غير بعيد منه ، فيه خلافة عباسية سُنية قائمة ، بايعها جمهور المسلمين ورسَّخها عمر طويل قارَب منتصف قرنه الثالث .

ويلتفت إلى يسار ، فإذا مصر قريبة منه واصلة إليه ، قد استقرت فيها دولة فاطمية قوية فتية ، في عنفوان نشاطها وضجيج دعوتها . ومن حولها التفَّ الناقمون والطامحون والمغامرون ، وحفَّتْ بها إيحاءات غيبية وهمسات سِرية ...

و « حلب » كانت تابعة للعباسية في عصرها الأول . ثم استقلت بها الحمدانية استقلالا ذاتيا مع التبعية الرسمية لبغداد . وولد « أبو العلاء » ليشهد انطفاء الشعاع البارق ، وقد طويت الصفحات المجيدة التي كتبها « سيف الدولة الحمداني » بجهاده وبطولاته ، ووُضِعت مكانها صفحاتٌ سود مكتوبة بالتخاذل والتمزق والهزيمة ، واستجداء المعونة من الروم الذين أمضى سيف الدولة حياته يحاربهم مجاهدا ، ويدفعهم عن ديار الإسلام .

انتهى ذلك المُلك الشامخ إلى « أبي الفضل » حفيد سيف الدولة ، سنة ٣٨١ هـ ، فسلبه منه « أبو نصر بن لؤلؤ » أحد موالي أبيه سعد

الدولة . ثم وثب على أبي نصر ، مولاه « فتح » فاعتصم في قلعة حلب ، وكاتَب الخليفة الفاطمي العلوي بمصر ، فولَّاه عليها وأعطاه معها « صيدا ، وبيروت » على حين سار « ابن لؤلؤ » إلى أنطاكية ، وهي يومئذ للروم ، فأقام معهم بها .

وظلت حلب – عاصمة سيف الدولة – تنتقل من يد إلى يد ، حتى غزاها « صالح بن مرداس » سنة ٤١٤ هـ. واستقر بها بضع سنوات ، إلى أن غزاه جيشُ الظاهر الفاطمي العلوي ، فقتله سنة ٤٢٠ هـ ، وقتل معه ولده وأرسل رأسيهما إلى الخليفة الظاهر بمصر !

بعد سنتين اثنتين ، كان الروم يسيرون إلى حلب ومعهم « حَسَّان ابن مفرج الطائي » – وكان قد هرب إليهم إثر هزيمته من عسكر الظاهر ، على الأَردن . وسجل التاريخ سنة ٤٢٢ هـ ، مشهد دخول « حَسَّان » الأَمير العربي ، وعلى رأسه علَمٌ فيه صليب ، ومن حوله عساكر الروم يقتحمون حلب غزاة ظافرين منتقمين ، ليذيقوا أَهلها وبال التعذيب وذل الأَسر والسباء .

ونجا « أَبو كامل شبل الدولة : نصر بن صالح بن مرداس » فسار إلى حلب وحارب الروم عنها ، وظل يحكمها إلى أَن قتله جيش « المستنصر الفاطمي » في حماة ، سنة ٤٢٩ هـ .

وتتابعت جولات الصراع بين الولاة والحكام ، إلى وفاة أَبي العلاء ... [1]

****

(١) عرضت لعصر أَبي العلاء بمزيد تفصيل في(الغفران : دراسة نقدية) ط .دار المعارف بالقاهرة .

كلا . لم يكن أبو العلاء قبل رحلة بغداد ، بمعزل عن ذلك الصراع الدائر هناك أو هنالك ، وقد نقلنا ـ فيما مضى من حديث شبابه ـ بعض حماسياته من (سقط الزند) في المعارك بين المسلمين والروم . ونقلنا معها من شعره الأول . ما ينم عن ضيقه بفساد العصر واختلال القيم واضطراب الموازين ،

لكنه فيما يبدو . كان مشغولا إلى حد كبير ، بمعركة التحدي وأماني الطموح ، بحيث يمكن القول بأن إحساسه بفساد الحياة العامة ، كان يتوارى خلف إحساسه القوي بهمومه وأمانيه ، تاركا مع ذلك رواسب في أعماقه ، لن تلبث أن تظهر في تأملاته وأماليه ، بعد أن خلا إلى نفسه في عزلته . واعتكف يرصد خَلل العصر وأمراض المجتمع .

على أنه مهما يكن شعوره بمجرى الأحداث في الشام ، فإن المعترك في الإقليم لا يُقاس بالذي في العاصمة الكبرى ، صخبا واختلاطا ووهَجا ونشاطا .

وإذا لم يكن قد فاته لمحُ ما هنالك على البُعد ، فإن « بغداد » رغم كل شيء ، لم تفقد جاذبيتها وسحرها ، وهي عاصمة الدولة وحاضرة العربية والإسلام ، وفيها كما عرف أبو العلاء وقال : « مجتمع أهلِ الجدلِ وموطن بقية السلف » وإليها رحلة أعلام العصر وأعيان الزمان .

ولم يحد من نشاطها العلمي والأدبي ، أنْ لم يكن كله خالصا لوجه العلم ونشر الثقافة ، بل كان منه ما أريد به كذلك استكمال مظهرية الرياسة وأبهة السلطان .

ولعل هذا الوضع ، كان من أسباب نشاطها ودواعي خصبها : فقد

جذب إلى العاصمة مع العلماء والكتاب ، كثيرا من الشعراء وطلاب الشهرة والجاه . وهناك ... وصل منهم مَن وصل إلى المناصب العالية ،

ووقف آخرون على أبواب السادة الحكام والأُمراء ، يستجدون فضلات موائدهم ، يحدوهم صوت زعيمهم المتنبي ، في النصف الأول من القرنِ الرابع :

أَبا المسكِ هل في الكأْس فضل أَنالُه
فإني أغني منذ حينٍ وتشرب !

****

وإلى هذا المعترك الصاخب مضى أبو العلاء ، ليجد نفسه هناك في دوامة الموج الهادر ...

وفي ذلك المناخ تنفس ، وأقام يختبر طاقته ويكتشف نفسه ، إلى أن انتهى إلى عزلة وانفراد ...

حَديث الذهَاب

فيا برقُ ليس الكرخُ داري وإنما
رماني إليه الدهـرُ منذ ليـــالِ
فهلْ فيك من ماء المعرة قطـرةٌ
تغيث بهـا ظمـآنَ ليس بِسَالِ

أبو العلاء

(سقط الزند)

متى سافر إلى بغداد ؟

ولماذا ألقى بنفسه ، وهو الضرير المستطيع بغيره ، في خضمِها المائج الهادر ؟

وماذا لقي فيها من صدمة زلزلت كيانه ودفعت به إلى أن يصدر على نفسه القرار الصارم بالعزلة والرفض ؟

أما متى سافر ، فمن الإخباريين من قالوا : سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ،

كابن الأنباري ، وياقوت ، والصفدي ، وابن حجر [1] .

ومنهم من قالوا : سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ، كابن الجوزي والقفطي ، وأبي الفداء ، والذهبي [2] .

وهو خلاف يسير ، يمكن أن يفسره لنا قولُ « ابن العديم » إن أبا العلاء « رحل إلى بغداد سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، ودخلها سنةَ تسع وتسعين » .

روايةً بالمكاتبة ، تلقاها ابن العديم من كتابٍ سيَّره إليه « قاضي المعرة شهاب الدين أبو المعالي أحمد بن مُدرك بن سليمان » أحد بني سليمان آل أبي العلاء [3] .

وعلى هذه الرواية الموثقة ، يكون بعض الإخباريين قد حددوا زمن الرحلة بوقت خروج أبي العلاء من معرة النعمان ، وحددها الآخرون بوقت وصوله إلى بغداد .

ووهِمَ « ابنُ خلكان » فجعلها رحلتين ، في سنتي ٣٩٨ هـ و ٣٩٩ هـ [4] ، وهو ما انفرد به لم يقله أحد سواه ، وليس في آثار أبي العلاء حديث إلا عن رحلة واحدة لم تتكرر .

والذي يعنينا على كل حال ، هو أنه سافر إلى بغداد ناضج الشباب فتيَّ الرجولة ، في نحو السادسة والثلاثين من عمره .

****

(١) في تراجمهم لأبي العلاء من مصنفاتهم : نزهة الألبا ، ومعجم الأدباء ، والوافي ، ولسان الميزان .
(٢) في تراجمهم لأبي العلاء من مصنفاتهم : المنتظم ، وإنباه الرواة ، والمختصر ، وتاريخ الإسلام .
(٣) الإنصاف والتحري : ٥٤٤/ تعريف .
(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان : أبو العلاء .

ولم سافر ؟

قيل : « إنه أُوذي في وقفٍ له ، فرحل إلى بغداد متظلما من أمير حلب » وممن ذكر ذلك : « القفطي » في إنباه الرواة ، و « الذهبي » في تاريخ الإسلام .

لكنهم أمسكوا بعد ذلك ، فلم يأْتوا بأَي خبر يشير إلى أن أبا العلاء تحدث في مظلمته المتعلقة بهذا الوقف ، أثناءَ مقامه الذي طال ببغداد وامتد إلى سنة ٤٠٠ هـ .

كما لم يشر أبو العلاء إلى ذلك الوقف قط ، فيما أطال من حديثٍ عن رحلته ، بل إنه نفى نفيا قاطعا أن تكون متعلقة بمال .

فهل كانت رحلته التماسا لسعةٍ في الرزق واستكثارا من النشب ؟

يبدو أنه كان ، عند بعض القوم ، مظنة أن يفعل ، شأْنه في هذا ، شأْن الكثرة من العلماء والأدباء الذين رحلوا إلى بغداد .

وذلك ما نفاه مؤرخه « ابن العديم » بقوله : « ولم يرحل ، إلى بغداد ، لطلب دُنيا ولا رِفد »[1] واستشهد بأَبيات أبي العلاء :

أإخواننا بين الفرات وجلَّقٍ ... يَد الله لا خبَّرتُكم بمُحالِ

أنبئكم أني على العهد سالـم ... ووجهيَ لمَّا يبتذلْ بسؤالِ

وأني تيممت العراقَ لغير مـا ... تيمَّمه غيلانُ عند بـلالِ

فأَصبحت محسودا بفضليَ وحدهِ ... على بُعدِ أنصاري وقلةِ مالي

الأَبيات من (سقط الزند) وصريح نصها أنه سيَّرها وهو مقيم

---

(١) الإنصاف والتحري : ٥٤٢/ التعريف .

ببغداد ، على بُعدِ أنصارِه ، بلاغا إلى عامة الإخوان ما بين الفرات وجلق ، من أهل العراق والشام ، بأن من المُحال عنده أن يبتذل وجهه بسؤال . أما لماذا آثر بالذكر « غيلان » دون سائر الشعراء الذين تيمموا العراق التماسا لرفد الولاة والخلفاء . فلأن غيلان ذا الرمة . كان يتيمم الكوفة على عهد واليها « بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري » فكان يسخو في صلته دون أن يسأله ، وقد عُرِف عن ذي الرمة أنه « إذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع »[1] .

فكأنما كبُر على أبي العلاء أن يذكر سواه من الشعراء الذين ابتذلت وجوهُهم بالسؤال . وإنما حسبه أن يشير إلى غيلان الذي كان يتقبل عطاء بلال دون سؤال ، على حين رفض أبو العلاء أن يقبل صلة من أي إنسان ، ولو عُرِضت عليه دون سؤال .

فلنذكر مع أبياته التي سيَّرها من بغداد ، واستشهد بها « ابن العديم » على نفي أن يكون رحل « لطلب دنيا أو رفد » أن أبا العلاء عاد فأكد هذا النفي القاطع ، وأكد معه أن المال عُرِض عليه فأباه عليه طبعه ورفضيته مروءته . أملى في بلاغه إلى أهل المعرة ، برسالته التي سيرها إليهم عند خروجه من بغداد في طريق الإياب :

« وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب ...

« والله يحسن جزاء البغداديين ، فلقد وصفوني بما لا أستحق ... وعرضوا عليَّ أموالَهم عرض الجد ، فوجدوني غيرَ جَذِلٍ بالصفاتِ ، ولا هَشٍّ إلى معروف الأقوام » .

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١/٤١ ط . المعارف بالقاهرة .

وأملى في رسالته إلى خاله « أبي القاسم علي بن سبيكة » مشيرا إلى محاولة البغداديين قضاء حاجاته ، حرصا منهم على بقائه بينهم :

« وكلما عَرَضوا قضاء حاجةٍ أعرضتُ عن تكليف المشقة ، لأني أعتقد حكمة « زهير » في قوله : (١)

ومن لا يزل يستحمل الناسَ نفسَه
ولا يُعفها يوما من الذلِّ يُسأَم

« وأمروني لرغبتهم في صحبتي - جِواري - منهم ، بأُمورٍ تنهى عنها القناعة وتكفُّ دونَها العادةُ :

على حين أنْ ذكَّيْتُ وابيضَّ مفرقي
أسامُ الذي أعييتُ إذ أنا أمرَدُ

****

أماويَّ ما يغني الثراءُ عن الفتى
إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدرُ (٢)

وأبو العلاء عندنا المصدَّق . وكلماته تشهد بأنه لم يتكلف رفض العطاء والمنةِ تجمُّلا ، وإنما ذاك حُكم العادة وإباء الطبيعة والسجية ، فليس بحيث يُسام وقد ابيض مفرقه ، ما أعياه وهو أمردُ .

فلعله إذنْ قد سافر يستزيد من العلم ويستكثر من عدد شيوخه ، على مألوف عصره ، إذ كان العالِمُ يعتز بكثرة مَن لقي من الشيوخ ؟ .

---

(١) زهير بن أبي سلمى ، والبيت من معلقته .

(٢) البيت لحاتم الطائي ، وقد عذلته زوجه ماوية على إتلاف ماله جوداً - وانظر رسالتي أبي العلاء في مجموع رسائله .

يخطر ذلك على البال .

لولا أن أبا العلاء ينفيه نفيا قاطعا في رسالتيه اللتين أملاهما عند منصَرفه من العراق ، فقال في إحداهما ، لخاله أبي القاسم :

« ومنذ فارقتُ العشرين من العمر ، ما حدَّثت نفسي باجتداء علمٍ من عراقي ولا شامي ... وانصرفت – من بغداد – وماءُ وجهي في سِقاءٍ غير سرب ، لم أُرق منه قطرة في طلب أدبٍ ولا مال ... » .

وقال في الأُخرى ، لأَهل المعرة :

« وأحلف ما سافرتُ أستكثر من النشب ، ولا أتكثر بلقاءِ الرجال[1] »

****

ففيم إذن كان السفر ؟

أبو العلاء يصرح في رسالته إلى خاله ، بأَن الذي أقدمه إلى تلك البلاد « مكانُ دارِ الكتب بها » .

كما يصرح في رسالته إلى أهل بلده ، أنه إنما « آثر الإقامة بدار العلم » .

وليس قوله عندنا بمتهم ، ويذكرون في تاريخه أنه « لما وصل إلى بغداد ، طلب أن تُعرض عليه الكتب التي في خزائنها » .

لكن بقي أن نسأل : إذا كانت هذه هي الغاية من الرحلة ، ففيم كان ذلك التحول الخطير في حياته بانصرافه من بغداد ، وقد حقق غايته من السفر إليها وعُرِضت عليه كل الكتب التي طلبها هناك ؟

---

(١) أنظر مع رسالتيه ، قصيدة أخيه أبي الهيثم عن هذه الرحلة البغدادية . وتأتي القصيدة في مقال يلي : « في خضم العاصمة » .

ويذكر « ابن فضل العمري » أنه لما أجيب إلى طلبه « جعل لا يقرأ كتابا إلا حفظ جميع ما يُقرأ عليه »[1] ويضيف « القفطي » أنه حضر خزانة الكتب التي بيد عبد السلام وعرض عليه أسماءها ، فلم يستغرب شيئاً لم يره – من قبل – سوى « ديوان تيم اللات » فاستعاره ، وخرج من بغداد وقد سها عن إعادته . ولم يذكره حتى صار بالمعرة ، فأعاده إليه[2] .

وفي النصوص العلائية ما يؤيد هذه الأخبار عن رحلته[3] . فتكون بذلك قد حققت غايتها ونجحت كل النجاح ، بحيث يعوزنا أن نَفهم سر قراره بالانسحاب والعزلة ، والانقطاع عن الدنيا .

ولقد لقينا أبا العلاء في (سقط الزند) قبل رحلته ، وسمعناه يجلجل بقصائده المسرفة في التحدي والمكابرة ، المعبرة عن طموح لا يعرف مدى يقف عنده . وسمعنا قبلها ما نقل « الثعالبي » من قول المصيصي الشاعر : « لقيت بمعرة النعمان عجبا من العجب . رأيت أعمى شاعرا ظريفا يلعب الشطرنج والنرد ، ويدخل في كل فن من الجد والهزل ، يكنى أبا العلاء . وسمعته يقول : أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر ، فقد صنع لي وأحسَنَ بي إذ كفاني رؤية الثقلاء البغضاء »[4] .

---

(١) مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري / ص ٢٢٤ تعريف .

(٢) إنباه الرواة : ترجمة أبي العلاء .

(٣) أنظر رسالته إلى عبد السلام البصري في مجموع الرسائل . ومعه حديثه عن دار العلم ببغداد ، في (رسالة الغفران) ص ١٤٧ ط الذخائر الخامسة .

(٤) أبو منصور الثعالبي : تتمة اليتيمة /١/٩ .

مع الأيام والسنين ، نضج وعيه لذاته واكتشافه لنفسه وإدراكه لكنه ظل طويلا يقاوم دواعي القنوط ويفر من الاستسلام للهزيمة فيما أراد من تحدي الأيام و « معاندة القدر » حتى بدا له آخر الأمر أن يحسم معركته بالسفر إلى بغداد ، التماسا « لإحدى الراحتين » .

وأغلب الظن أنه صفّى حسابه قبل الرحلة ، مع طموحه ، فلم يستبق منه إلا الرجاء في المجد العلمي والجاه الأدبي . وكانت له منذ صباه شهرة إقليمية إن لم يشهد بها المروي من أخبار شبابه بالمعرة ، فإن في (سقط الزند) شواهد ناطقة بما أتيح له من تفوق ، وشعوره بأنه فات بمواهبه من تعلقوا بمنافسته ، فما عادوا قادرين على أن يبلغوا شأوه إلا أن تختل الموازين وتضل المقاييس ، فيصف « مادرٌ » حاتم الطائيَّ بالبخل ، ويُعير « باقلٌ » قسَّ بن ساعدة الإيادي ، بالفهاهة والعي ، ويقول السُّهى للشمس : أنت ضئيلة ، وتفاخر الشهبَ الحصى والجنادلُ ...

وقد بقي ، ليسجل هذه الشهرة الإقليمية ، أن تعترف به بغداد ، حين كان اعترافها مطمحَ كل عالم وأديب يجد في علمه أو مواهبه ما يؤهله للظفر بشهادةٍ من عاصمة العربية والإسلام .

وشدَّ رحالَه إلى مدينة السلام ، يحدوه رجاء كبير في أن يفر من هواجس الحيرة التي أنهكته بين شد وجذب ، وأن يعرف ماذا وراء أمله الباقي في أن يفرض وجوده على الدنيا والناس .

وتزود للرحلة بأسلحته التي يملكها :

ذكاء شبه أسطوري ، ورسوخ عميق في علوم العربية والإسلام ،

وموهبة أدبية أصيلة مبدعة .

تلك كانت أسلحته في الجولة الحاسمة من معركته مع نفسه ، ومع الدنيا .

طال عليه الطريق وأجهده السرى وهو يتعجل الوصول إلى بغداد ، نافد الصبر ضيق الصدر بكلال ناقته .

ولم يذكر مؤرخوه من حديث الذهاب ، إلا خبراً نقله « ابن العديم » سماعا من والده عن مشايخ أهل حلب ، في معرض الكلام عن ذاكرته العجيبة .

قيل إنه مرَّ وهو راكبٌ بشجرة ، في طريقه إلى بغداد. فقال له مَن يقوده : « طأطئ رأسك » ففعل . حتى إذا آب من الرحلة بعد عام وبعض عام ، ومرَّ بذلك الموضع ، طأطأ رأسه من تلقاء نفسه . فسئل في ذلك فأجاب : « ها هنا شجرة » قالوا : « ما ها هنا شيء » ثم فحصوا الموضع فإذا أصل شجرة مجتثة [1] .

« طأطىء رأسك » .

ما أشقها من كلمة على الحس المرهف لهذا الضرير الذي يخرج لأول مرة إلى خضم العالم الواسع ، وقد كان من قبلُ أَلِفَ الحركة في حدود عالمه الصغير الضيق ما بين المعرة وحلب ، مهتديا بحسّه الذكي وبصيرته الثاقبة ، ومترنما بمثل قوله في الدهر الأول :

وأغدو ولو أن الصباح صوارم

وأسري ولو أن الظلام جحافل !

---

(١) الإنصاف والتحري : ٥٥٩/ تعريف . ومثله في (مسالك الأبصار) لابن فضل الله العمري .

وهذه هي شجرة فحسب على الطريق ، أنّى له أن يتقي الاصطدام بها إلا أن يقول له مَن يقوده ، منبها ومرشدا : طأطىء رأسك !

***

غير أن شح الأخبار عن رحلته ، يعوضه سخاء أبي العلاء في تسجيل كل خطواته وخواطره . وفي (سقط الزند) قصيدة مطولة أرسلها وهو في طريق الذهاب ، إلى « أبي حامد الاسفراييني ، من أعلام بغداد » يسأله أن يكون دليلَه في متاهة العاصمة . أعني قصيدته العينية التي مطلعها :

لا وضعَ للرحلِ إلى بعد إيضاع
فكيف شاهدت إمضائي وإزماعي
يا ناق جِدِّي فقد أفنت أناتُك لي
صبري وعمري وأحلاسي وأنساعي [1]

ومنها نعلم أنه أخذ طريق الأنبار والقادسية . ثم عبرَ بادية الشام نحو بغداد . ويحدثنا عما تجشم من مشاق السفر في المهمَهِ القفر ، مع مخاوفه ووحشته :

سارتْ فزارت بنا الأنبارَ سالمة
تزجي وتدفع في موجٍ ودفّاع
والقادسية أدّتْها إلى نَفَرٍ
طافوا بها فأناخوها بجَعجاع

---

(١) الأحلاس : جمع حلس ، وهو كساء يطرح على ظهر البعير . والأنساع : جمع نسع ، سير تشد به الرحال .

ورُبَّ ظُهْرٍ وصلناها عـلى عجل
بِعَصْرِها ، في بعيد الوِرد لمَّاع
بضربتين : لِطهر الوجهِ واحـدةٌ
وللذراعيــن أُخرى ذات إسراع
وكم قصرنا صلاةً غيرَ نافلـةٍ
في مَهمَهٍ كصلاة الكسف شعشاع
وما جَهَرنا ، ولم يصدح مؤذننا
من خوفِ كلِّ طويل الرمح خَدَّاع (١)
. . . . . .
إلى أن قال :
وبالعراق رجـالٌ قربُهـم شرف
هاجرتُ في حبِّهم رهطي وأشياعي
اسمعْ أبا حامدٍ فتيا قُصِدتَ بها
من زائر لجميلِ الـودِّ مُبتـاع
مؤدبِ النفس أكَّالٍ عـلى سغَب
لحـمَ النوائب شرابٍ بأنقـاع
أرضى وأُنصِفُ إلا أنني رُبَمـا
أربيت ، غيرَ مجيزٍ خرق إجماع

(١) يشير إلى قطاع الطرق في البادية المقفرة . ومن خوفهم كان ما ذكره من الجمع بين صلاتي الظهر والعصر ترخصا ، وقصر صلاة من الفرائض لا النوافل . ويعني بضربتين لطهر الوجه والذراعين : التيمم ، والورد بعيد كالسراب .

وذاك أنيَ أُعطِي الوسقَ منتحيـا
من المودة ، مُعطِي الودِّ بالصاع
ولا أُثقِّل في جاهٍ ولا نشـب
ولو غدوتُ أخـا عُدْمٍ وإدقـاع

من قال : صادق لئام الناس قلت له
قولَ ابن أَسْلَتَ : قد أبلغت أسماعي[1]

•

مطيتي في مكـانٍ لستُ آمنـه
على المطايا وسرحانٍ لـه راع
فارفع بكفِّي فـإني طائش قدمي
وامدُد بضبعي فإني ضيقٌ باعـي
وما يكن فلَكَ الحمد الجميل به
وإن أُضِيعتْ فإني شاكر داعِ

هواجس كانت تساوره وهو في طريقه إلى العاصمة ، يخشى فيها عثرة القدم وضيق الباع ، ويخاف على رحله في مكانٍ لا يأمنه على المطايا ، والذئب راعٍ فيه !

وإذ يحتاج إلى عونٍ من جميل ودِّ أبي حامد الإسفراييني ، يبادر فيعرف رجال العراق بزائرهم الذي هاجر فيهم رهطه وأشياعه :

مؤدب النفس ، أكّالٍ لحمَ النوائب ، على شدة جوع . ينصف

---

(١) تضمين لقول أبي قيس بن الأسلت في بيته :
قالت ، ولم تقصد لقيل الخنا مهلا ، لقد أبلغـت أسماعي

برعاية حقوق المودة ، إلا أنه ربما ضاعف جزاءها ستين مرة ، فأعطى بالصاع منها وسقاً ــ والوسق ستون صاعاً ــ رِباً حَلالاً .

وحدد مؤرخوه ليوم وصوله إلى بغداد ، ظرفا كئيبا لطم قلبَه الحسّاس لطمة قاسية . وأنقل هنا من وصفهم لمشهد وصوله :

« واتفق يومَ وصوله إلى بغداد ، موتُ الشريف الطاهر والد الشريفين الرَّضِي والمرتضى . فدخل أبو العلاء إلى عزائه والناس مجتمعون والمجلسُ غاصٌّ بأهله . فتخطى بعضَ الناس فقال له ، ولم يعرفه : « إلى أين يا كلب ؟ » قال أبو العلاء : « الكلب مَن لا يعرف للكلب سبعين اسماً » ثم جلس في أخريات المجلس ، إلى أن قام الشعراء وأنشدوا مراثيهم ، فوقف أبو العلاء وأنشد ، مرتجلا ، قصيدته في رثاء الفقيد :

• أَوْدَى فليت الحادثات كفافِ •

فلما سمعه ولَدا الشريف الطاهر ، قاما إليه ورفعا مجلسه وقالا له : لعلك أبو العلاء المعري ؟ قال : نعم . فأكرماه واحترماه »[1] .

مأتم يستقبله يوم وصوله ؟

والكلب ، أول لقبٍ تقدمه إليه بغداد ؟

ما أعجبه من اتفاق ! لكأنما وقفت الدنيا مترصدة تنتظر مقدم ذلك المغرور المتعالى ، لترده إلى موضعه على الأرض ، بعد ما طال مزعمه أن النجم دونه !

وأوى إلى فراش غربته محزونا يجتر قهره ويلعق جرحه ، ويرنو بوجدانه عبر الظلام الدامس المتكاثف ، إلى برق لاح له من ديار الشام

---

(١) ابن العديم : الإنصاف والتحري ، ٥٤٣/ تعريف .

obeikandi.com

فهاج مواجعه . ويصغي في صمت الليل وفراغ الوحدة ، إلى صدًى ملء مسمعه من تحنان الإبل يعذبه . كانت تحن إلى الديار ، رغم حرصه على ستر وجوهها كيلا تلمح إيماض البرق المتعالي من ناحية الشام . ولولا ما بينه وبين المطايا من تعاطف وما جُبِل عليه من حفاظ ورحمة ، لأمر صاحبه – رفيقه في السفر وقائده – أن يقيد بالسيف جموحها نحو مرابعها الأليفة . وإنه مع ذلك ليعجب لهذه البهم : هل زارها طيف خيال كما زاره طيف خيال فهاجه ؟ وما أبعد الفرق بينها وبينه : إنها لن تلبث أن تنسى بمياه دجلة مياه قويق ، ومياها أخرى وردتها من قبلُ بالفلاة ، وهيهات لمثله أن ينسى . وإنها لذاهلة عما تلهب بتحنانها من وجدٍ في صدره ، وهيهات لمثله أن يذهل أو يسلو !

ومن أعماق وحشته ، يأتينا صوتُه ولمَّا يمض عليه في بغداد غير ليالٍ ، مسجلا مرهف تأملاته وخواطره ، ونبض وجدانه ورجع شجوه وشجنه ، في لاميته الرائعة التي تذكرني بدالية « طرفة بن العبد » المعلقة ، إذ أطال الوصف الحسي لشكل ناقته وأعضائها وحركاتها ، على حين أطال أبو العلاء الصحبة الوجدانية للمطايا ، وشُغل في رؤياه الشعرية بالعالم النفسي عن ظواهر الحسيات وأشكال الأعضاء :

طرِبْنَ لضوء البارق المتعالي
ببغداد وهْناً ، ما لهنَّ وما لي !
سمتْ نحوه الأبصار حتى كأنها
بناريه ، من هنا وثَمَّ ، صوالي

إذا طال عنها سرُّها لو رءوسُها
تُمد إليـه في رءوس عـوالـي

تمنت « قويقا » والصراةُ حيالَها
سرابٌ لها من أينُقٍ وجمال (١)

إذا لاح إيماضٌ سترتُ وجوههـا
كأنيَ عمرو ، والمطـي سعـالي (٢)

وكم هَمَّ نِضوٌ أن يطير مع الصبا
إلى الشام ، لولا حبسُه بِعُقالِ

ولولا حِفاظي قلت للمرء صاحبي
بسيفِـك قيِّدْهـا فلست أبـالي

أأبغي لها شرّاً ولـم أر مثلَهـا
سفائرَ ليـلٍ أو سفائـنَ آلِ ؟

لقد زارني طيف الخيال فهاجني
فهل زار هذي الإبْلَ طيف خيالِ

لعل كَراها قد أراها جذابَهـا
ذوائبَ طلحٍ بالعقيقِ وضـالِ

(١) قويق : نهر حلب . والصراة : نهر ببغداد .

(٢) من أساطير العرب أن عمرو بن يربوع بن حنظلة ، تزوج السعلاة — أنثى الغول . فقيل له : إنك ستراها خير امرأة ما لم تر برقا ، فإنها إذا رأت البرق لم تلبث مكانها .

فكان عمرو اذا لاح برق ستّرها عنه . إلى أن غفل ذات ليلة ولاح البرق فاندفعت لا تلوي على زوج أو ولد ، وقالت فيما زعموا :

أمسك بنيك عمر إني آبق
برق على أرض السعالي آلق !

obeikandl.com

ومسرحَها في ظلِّ أحوى كأنّهـا
إذا أظهرَتْ فيه ذواتُ حِجـال

حلمنا بأسنانِ الكهولِ ، وهذه
شوارفُ تزهاهـا حلـومُ إفـال

ترى العودَ منهـا باكيـا فكأنه
فصيلٌ حمـاه الخلفَ ربٌّ عيال [1]

ستنسى مياهـاً بالفـلاة نميـرة
كنسيانهـا وِرْداً بعيـن إثـال [2]

وإن ذهلت عما أجـنَّ صدورُها
فقد ألهبت وجدا صدور رجـال

ولو وَضعتْ في دجلة الهامَ لم تفق
من الجرْع إلا والقلوبُ خـوالِ

تَلَوْن زبورا في الحنيـن منـزلا
عليهن ، فيه الصبرُ غيرُ حلالِ

بكى سامريُّ الجفن أن لامَسَ الكرى
له هدب جفنٍ مسَّه بِسجـال

تهاداني الأرواحُ حتى تحطـني
على يد ريح بالفراتِ شمـال

---

(١) العود : المسن من الإبل . والخلف : الضرع . وحماه بمعنى منعه .
(٢) عين إثال : عين تردها الوحوش . كأنه يعني نسيان الإبل عهد توحشها الطليق بالفلاة .

فيا برقُ ليس الكرخ داري وإنما
رمـاني إليه الدهر منذ ليـالِ
فهل فيك من ماء المعرة قطـرة
تغيث بهـا ظمآنَ ليس بسـالِ

****

أإخواننا بين الفـرات وجِلَّـقٍ
يدَ الله ، لا خبَّرتكـم بمحـالِ
أنبئكم أني على العهـد سالـم
ووجهـي لمـا يبتـذل بسـؤال
وأني تيممت العراق لغيـر مـا
تيممه غيـلانُ عنـد بـلال
فأصبحت محسودا بفضليَ وحده
عـلى بُعد أنصاري وقلـة مـالي

****

ندمت على أرض العواصم بعدما
غدوتُ بها في السَّوْم غيرَ مغالي (١)
أروح فلا أخشى المنايا وأتقـي
تدنُّس عِرضٍ أو ذمـيمَ فعـال

---

(١) العواصم : حصون من حلب إلى حماة ، منها معرة النعمان . وأبو العلاء نادم هنا على أن ساوم على العواصم ، بدار الغربة في بغداد ، فكانت صفقة خاسرة .

إذا ما حبالٌ من خليلٍ تصرَّمتْ
عَلِقتُ بخِلٍّ غيرِه بحِبال
ولو أنني في هالةِ البدر قاعد
لمَا هاب يومي رفعتي وجلالي

****

في النفس إذنْ بقية من طموح ، ما تزال تعينه على محنته وتمده بشيء من طاقة الاحتمال ، بعد أن رماه الدهر إلى الكرخ منذ ليال ، وليس الكرخ داره كما قال .

فليطو إذن حنينه المُلتهب ، وليطوِ معه ما أحسَّ من وقع لفظ « الكلب » على وجدانه المرهف . وهو على كل حال لم يسكت على اللفظ الجارح ، بل أخرج من جعبته سلاحه : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما ...

وأرضاه أن سمعت أذناه ما اطمأن به إلى أن شهرته بإقليم حلب ، قد سبقته إلى بغداد ، إذ سأله الشريفان الرضي والمرتضى : لعلك أبو العلاء المعري ؟

أجل ، إنه هو ...

هو الذي يعرف للكلب سبعين اسما ، والذي يرتجل مرثية في الشريف الطاهر ، ينشدها في عزائه يوم وصوله إلى بغداد ، فيجذب الأسماع والقلوب ، ويحظى بالإكبار والتقدير .

. . . . . .

في خضم العاصمة

فيا دارَها بالحَزْنِ إن مَزارَهـا
قريب ، ولكنْ دون ذلك أهوالُ
تمنَّيتُ أن الخمر حلَّتْ لِنشوةٍ
تُجهِّلني كيف اطمأنَّت بيَ الحالُ
فأذهل أني بالعراقِ على شفىً
زريّ الأماني ، لا أنيس ولا مال

أبو العلاء
(سقط الزند)

في محلة « القطيعة » على شط دجلة كان منزله ....
ومن ماله الذي حمله معه من « المعرة » كان يدبر ضرورات عيشه .
وإليه توافد الناس في أول الأمر يختبرونه .
فلم يكن البغداديون بحيث يكتفون بشهادةٍ إقليمية يحملها أبو

العلاء معه من خارج العاصمة أو تسبقه إليها . فالذي يبهر الناسَ في المعرة أو حلب ، قد يكون في الحاضرة الكبرى للدولة غيرَ لافت ولا مثير ؛ ولا بد من أن يكون لأهل بغدادَ الكلمةُ الفاصلة فيما اشتهر من واسع علمه وعجيب ذكائه ونادر حفظه .

وفي الخبر أنهم أعدوا له امتحانا ، أشار إليه عدد من المؤرخين ، منهم « ابن فضل الله العمري » في كتابه (مسالك الأبصار) . ونص عبارته فيه :

« ولما دخل بغداد أرادوا امتحانه ، فأحضروا دستورَ الخراج الذي في الديوان ، وجعلوا يوردون عليه ما فيه مياوَمةً وهو يسمع إلى أن فرغوا . فابتدأ أبو العلاء وسرد عليهم كل ما أوردوه له » .

وهكذا اجتاز الامتحان بنجاح ، وأقر له البغداديون بأنه أعجوبة الزمان في حفظه وعلمه باللغة . كما شهدوا له شاعراً أصيلا مبدعا ، بقراءتهم عليه ديوانه (سقط الزند) بعد وصوله إلى بغداد .

وبدا له أن المعركة توشك أن تنتهي بما لاح له في دجاه من رجاء الإقامة في عاصمة العربية والإسلام ، مرفوعَ المكانة كريمَ الموضع .

وكانت معركته على وشك الانتهاء فعلا ، لكنْ على غير الوجه الذي ظنَّه أو رجاه .

دخَلَ خزائن العلم وعُرِض عليه كل ما فيها من كتب فوعاها حفظا واستيعابا ، بحيث لم يلق فيها ما يحمله معه عند خروجه من بغداد ، إلا ديوانا واحدا استعاره من خزانة بيت الحكمة – لعلها التي كانت بيد عبد السلام البصري – وهو (ديوان شعر تيم اللات) قبيلة أبي العلاء .

وتجوَّل بين الورَّاقين وخالطهم مذاكِراً . ولبث إلى ما بعد سنين طوال يذكر جولته بين الوراقين في مدينة السلام ويسترجع ذكرياته هناك . أملى في (رسالة الغفران) بعد نحو ربع قرن من رحلته إلى بغداد :

« وكنت بمدينة السلام فشاهدت بعض الورَّاقين يسأَل عن قافيَّةِ عديٍّ بن زيد :

بكر العـاذلاتُ في غَلَسِ الصبْـــح يقولون لي أمـا تستفيقُ
ودعا بالصبوح فجراً فجاءت قينة في يمينهـا إبريـق

وزعم الوراق أن « ابن حاجب النعمان » سأَل عن هذه القصيدة وطُلبتْ في (ديوانِ عديٍّ) فلم توجد . ثم سمعْت بعد ذلك رجلا من أهل « أستراباذ » يقرأُ هذه القافية في ديوان العبادي ـ عدي بن زيد ـ ولم تكن في النسخة التي في دار العلم » . (١)

وأحبَّ أبو العلاء بغدادَ لما شغفه من خزائن الكتب فيها ، فضلا عن نشاط مجالسها العلمية حيث يُتاح له حضورٌ متـألق جذَّاب ، في مجتمع علماء ذاك الزمان .

وظن أن « الزمان يسعفه على المقام بها » كما قال ...

لكن ظنه خاب !

وإذا كان لم يلق سلاحه يوم استقبلته بغداد بمأْتم الشريف الطاهر ، وصكَّت سمعَه الكلمة الجارحة ، فإن الأَيام كانت تدخر له ببغداد ما هو أقسى وأَمَرُّ :

---

(١) تجد في نسختنا المحققة من (رسالة الغفران) في طبعة ذخائر العرب ، إملاء لأبي العلاء حول بيتي العبادي . وعلى هامشه تعريف بالأعلام في النص المنقول هنا من الرسالة .

obeikandl.com

ذكر « ابن الأنباري » في (نزهة الألبا) أن أبا العلاء قصدَ مجلس إمام النحو ببغداد « أبي الحسن علي بن عيسى الربَعي » فلما استُئذِن له قال أبو الحسن : ليصعد الإصطبل !

والإصطبل هو الأعمى بلغة أهل الشام ، فيما ذكر « ياقوت » في معجم أدبائه ، و « الصفدي » في (نكت الهيمان) .

وانصرف « أبو العلاء » من فوره لم يلق أبا الحسن .

وفي قلبه أثرُ السهم الجارح ، جاءه هذه المرةَ من شيخٍ نحوي ، في مجلس علم يعرف أبا العلاء ؛ وليس من رجل من العامة يجهله ، في مأتم الشريف الطاهر .

وتركها تفوت ، أو طواها في أعماقه متجلدا ، ما يزال في طاقته بقية احتمال .

ثم كانت الطعنة النافذة ، من يدِ « الشريف المرتضى » نفسه ، ذاك الذي أكرم أبا العلاء ورفع موضعه ، عندما أنشد مرثيته في مأتم الشريف الطاهر أبي السيد المرتضى :

يذكرون أن أبا العلاء « كان يوما بمجلس المرتضى وقد جاء ذكر « المتنبي » فتنقصه الشريف وجعل يتتبع عيوبه . فقال أبو العلاء :

– لو لم يكن للمتنبي من الشعر إلا قصيدته :

* لكِ يا منازل في القلوبِ منازلُ *

لكفاه فضلا .

«فغضب السيد المرتضى وأمر فسُحِب أبو العلاء برجلهِ وأُخرج مهانا من مجلسه . وقال لمن يحضرونه :

ـ أتدرون أي شيء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة ؟ فإن للمتنبي ما هو أجود منها لم يذكره .

قالوا : النقيبُ السيدُ أعرَفُ .

فقال : أراد قول المتنبي ـ في هذه القصيدة اللامية ـ :

وإذا أتتكَ مذمَّتي من ناقصٍ

فهي الشهادةُ لي بأني كاملُ »

هل تفوت هذه أيضا ؟

« ياقوت » يربط بينها وبين انسحاب أبي العلاء إلى محبسه ، فيعقب على الحوار بين نقيب الأشراف ومَن حضروا مجلسه الذي طُرِدَ منه أبو العلاء ، بما نصه :

« ولما رجع إلى المعرة لزم بيته فلم يخرج منه ، وسمى نفسه رهين المحبسين » [1] .

على أن الموقف لم يكن بمثل هذا القرب ، بل احتاج إلى طول معاناة ما بين هذه الإهانة الساحقة ، وإنفاذ قرار العزلة .

أن يكون أبو العلاء تحامل على نفسه ولم يخرج فورا من بغداد إثر طرده مهانا مسحوبا من رجله ، من مجلس نقيب الأشراف ، فلا بد أنه كان يشق على نفسه بأكثر مما في طاقتها أن تحمله .

والذي لا ريب فيه عندنا ، هو أنه إذا لم يكن انسحب فورا من المعركة في ظاهر أمره وناجز فعله ، فقد انسحب منها نفسيا وبدأ يحس التعب والكلال ونفاد الحيلة والصبر ، ويصغي بوجدانه الجريح إلى

(١) ترجمة ياقوت لأبي العلاء ، في معجم الأدباء .

قصيدة سيَّرها إليه من المعرة أخوه الشاب « أبو الهيثم عبد الواحد » يستعطفه فيها على من خلَّف بالشام من دار وأهل وأحباب ، وينقم على بغداد أن اجتذبت ببريقها الخادع ، ذلك الماجدَ الأبيَّ الكريم . وهي قصيدة مطولة ، نقل منها « ابن العديم » أربعة وثلاثين بيتا [1] .

وفيها يقول أبو الهيثم :

بغدادُ لا سُقيت ربوعُك ديمـــةً
وغدتْ رياضُك حنظلا ومـرارا

أنت العروس يروق ظاهرُ أمرهـا
وتكون شينـا في اليقين وعـارا

أضرمتِ قلبي باجتذابـك ماجداً
كالسيفِ أعجب رونقـا وغـرارا

منَّيتِه محضـا ، فلمـا شفَّـه
ظمأٌ أتـاكِ به ، سقيتِ سمـارا

وجذبتِه فأتـاكِ يعتسف الـردى
ويخوض منه لُجـةً وغمـارا

شغفا بدارِ العلم فيكِ ، وقلبُـه
مـا زال رَبْعـا للعلـوم ودارا

ما زدتِ عما عنده ، فسقاكِ مَن
رفع السمـاء نقيصـةً وعِثـارا

. . . . . .

(١) في (الإنصاف والتحري) : ٥٤٤ / تعريف .

أأبا العلاء ، نداءَ عبـدٍ أدركت
منه النوى لما نأَتْ بـك ثـارا
حاشاك أن تُبدي الجفاء لخلـةٍ
وتعيدَ أقـران الوفـاءِ قصـارا
أدْرِكْ بـإدراكِ المعـرة مهجـةً
تَفنى عليـك مخافـةً وحِـذارا
بلغت بك الهممُ المرادَ فأيأسَتْ
منك الحسودَ ولم تَنِطْ بك عارا
فأقمت في الزوراء ثم غدوتَ في
أفق المفاخـر كوكبـا سيَّـارا
فاجنحْ عـلى مرضاة ربِّـك طالباً
منه الجـزاءَ وجانِب الإصـرارا
واسلم لقومِك إذ غدوت لمجدهم
تاجـا تشرف فضلـه وسِـوارا

فهل كانت أنباء أبي العلاءِ في غربته ، وما يلقى من خبث الناس وشرهم ، تصل إلى أهله بمعرة النعمان فتحزنهم وتشغل بالهم ؟

أو كان « أبو الهيثم » وهو من أقرب الأهل إلى أخيه أبي العلاء وأعرفهم بخلقه وسجيته وطبعه ، يتمثل حال الغريب النازح ، فيذوب قلبه * مخافة عليه وحِذارا * من المقام في بلدٍ تسرح فيه ثعالب الإنس وذئاب البشر ؟

كلا الفَرْضَين ، مما يحتمل ...

في بغداد أيضا ، قبل أن يمضي ، قال قصيدة في صديقه « أبي علي النهاوندي ، محمد بن محمد بن فورجه » فجاءت نشيجَ وداع وأنينَ حسرة ولُهاث غليل ، وفي سمعه نعيب الطير من بوم وغربان ، منذرة بفراق محتوم ، وتحنان نياقٍ هاجها دنوُّ الرحيل ، فهيهات له أن يقيم أو يظفر بغفوة قيلولة ومنام :

كفى بشحوبِ أوجُهِنا دليلا ... على إزماعِنا عنك الرحيلا
أبَتْ صِنفا النواعب من نياقٍ ... وطيرٍ ، أن نقيم وأن نقيلا
تأمّلْنا الزمانَ فما وجدنا ... إلى طِيب الحياة به سبيلا
يفجّعنا ابنُ دأية بابن إنسٍ ... نفارقه ، فلا تَبِعَ الحمولا
كَلِفْنا بالعراقِ ونحن شرخ ... فلم نلمم به إلا كهولا
وردْنا ماء دجلةَ خيرَ ماءٍ ... وزُرنا أشرفَ الشجر النخيلا
وأبنا بالغليل وما اشتفينا ... وغايةُ كلِّ شيءٍ أن يزولا

****

وتسرب من كفيه سراب ما كان له أملا في شرخ الشباب ، واستسلم للهزيمة نفسيا قبل انسحابه من بغداد ، حين أيقن أن المكابرة ضالة ، وأن النضال عقيم والأمل سراب ...

وإنه لفي مدينة السلام غريب غريب ، ظامىء والورد قريب ، يتمنى لو أن الخمر حلت لنشوةٍ تذهله عما يئوده من قهر وغربة ، ومن وحدة وضيق :

وأقام بعد ذلك ما أقام في بغداد ، وهو يعيد النظر فيما تزود به من عُدَّة وسلاح :

الأدب ؟

لا جدوى منه إلا إذا عزف للسلطان وتمرغ على أعتاب ذوي الجاه والنفوذ والمقام . لقد أكرمه نقيب الأشراف حين وقف في مأتم والده راثيا يعدد مناقبه ويذكر كريم سجاياه . ثم أهانه وأذلّه حين جهر برأيٍ له في شاعرٍ ، يخالف رأيَ السيد النقيب الشريف .

العلم ؟

إن مجتمع العاصمة في عصره ـ ولعله كذلك في أغلب العصور ـ يُقدر من يعرف كيف يأتي بالثعلب من ذيله ، أكثر من تقديره مَن يعرف للثعلب أو للكلب سبعين اسما أو ثمانين ...

العفة والإباء والصدق ؟

يا لها من بضاعة نافقة في سوق يروج فيها النفاق والزيف ، فليست بحيث تسمح لكلمة حرة أن تقال في مجلس الشريف المرتضى مخالفة لرأيه . بل تلفِظها وترفضها لتخلي المكان لقول شهود المجلس وهم خبراء بالسوق والبضاعة :

« السيد النقيب أَعْرَفُ » !

وأجمع أمره على العزلة وهو ما يزال في خضم المعترك ، وقد عرف أن أسلحته مفلولة ، تغلبها أسلحة أخرى لا يملكها من مكر الحيلة ونعومة المداهنة ولؤم النفاق .

وأيقن ألا مكان له في دنيا الناس ، وقد أعوزه عمى البصيرة وبلادة الحِس والضمير ، ومرونةٌ في الخلق والطبع يتلون بها في موكب المنافقين والمهرجين والدجالين ...

وبدأت رحلة الإياب ، وهو في بغداد مقيم .

بل إنه ودَّعها وداعَ محزون لفراقها ، في قصيدة أنشدها وهو بمدينة السلام ، تهنئة بمولودٍ لصديقه « أبي القاسم ابن القاضي التنوخي » فقال :

ولولا ما تكلِّفنا الليالي لطال القولُ واتصل الروِي
إذا نأت العراق بنا المطايا فلا كنا ولا كان المطِيُّ
على الدنيا السلامُ فما حياةٌ إذا فارقتُكم إلا نعيٌّ !

يهنىءُ بمولود ، فيذكر النعيَّ ؟

يا لله ما أقسى الذي كابد من وطأة إحساسه الباهظ بما « تكلفه الليالي » ورسوخ شعوره بموت الحيات في مولد الحياة !

فيا دارَها بالحَزْنِ إن مزارَها
قريب ولكنْ دون ذلك أهوالُ
إذا نحن أهلَلْنا بنؤيك ساءنا
فهلّا بوجه المالكية إهلالُ
تُسيء بنا يقظى فأما إذا سرَتْ
رقادا ، فإحسان إلينا وإجمالُ
وغنَّت لنا في دار سابورَ قينةٌ
من الوُرْق مِطراب الأصائل ميهال
رأت زهرا غضا فهاجت بمزهرٍ
مثانيه أحشاءُ لطُفن وأوصالُ

فقلتُ : تغنَّيْ كيف شئتِ، فإنما
غناؤك عندي يا حمامةُ إعــوال
تمنيت أن الخمر حلَّــتْ لنشوةٍ
تجهِّلني كيف اطمأنت بيَ الحالُ
فأذهل أني بالعراق عــلى شَفَــى
زريِّ الأماني لا أنيس ولا مــال
مُقل من الأهلين : يسرٍ وأسرة
كفى حزَناً بَيْنٌ مُشِتٌّ وإقــلال
متى سألت بغدادُ عني وأهلُهــا
فإنيَ عن أهــل العواصــم سَآلُ
إذا جَنَّ ليلي جُنَّ لُبي ، وزائــدٌ
خفوقُ فؤادي كلما خفــق الآلُ
وماءُ بلادي كــان أنجع مشربــا
ولو ان ماء الكرخ صهبــاءُ جِريال
فيا وطني إن فاتني بك سابــق
من الدهر فلينعمْ لساكنِك البــالُ
فإن أستطع في الحشر آتِكَ زائرا
وهيهاتَ ! لي يومَ القيامــة أشغال

. . . . . .

حَديث الإياب

« وهو أَمرٌ سُرِيَ عليه بِلَيلٍ ... ليس بنتيج الساعةِ ولا ربيب الشهر والسنة ، ولكنه غَذِيُّ الحِقَبِ المتقادمة وسليلُ الفِكر الطويل ... »

أبو العلاء

(من رسالته إلى أهل بلدِه)

على هذا النحو ، كان انسحابه النفسي من بغداد ، قبل أن يحمل شبابه المدبِر المقهور ورجاءه الخائب الضائع وأمانيه الزريَّة ، ليعود من حيث جاء إلى موضعه في معرة النعمان .

ولم تكن هناك حاجة قط ، إلى مطاردة من فقهاء بغداد تخرجه منها هاربا منهزما . أعني المطاردة التي أشار إليها « ابنُ كثير » في (البداية والنهاية) و « البدرُ العَيْني » في (عقد الجُمان) .

وموجز حكايتها أن فقهاء بغداد تعرضوا لقوله في اليَدِ : ديتُها خمسمائةُ دينار ذهباً ، وتُقطع في السرقة ولو كان المسروق رُبع دينار :

يَدٌ بِخَمسِ مئينٍ عسجدٍ وُدِيَـت
ما بالها قُطعت في رُبعِ دينـارِ
تناقض ما لنا إلا السكوتُ لـه
وأن نعوذ بمولانـا من النـار

« ولما عزموا على أخذه بها ، خرج من بغداد طريدا منهزما ورجع إلى بلده ، ولزم منزله فكان لا يخرج منه » .

وابن كثير توفي سنة ٧٧٤ هـ ، والعيني توفي سنة ٨٥٥ هـ . والخبر في روايتهما مرسَل بغير إسناد ، فلسنا نعرف طريق وصوله من زمن الرحلة – ٣٩٨ : ٤٠٠ هـ – إلى القرنين الثامن والتاسع ، ولم يذكره معاصرو أبي العلاء من المؤرخين والإخباريين ، كالثعالبي والخطيب البغدادي والباخرزي وابن الأنباري . وجاء « الصفدي » بالبيتين ، وهما من اللزوميات ، دون أن يحدد لخصومة الفقهاء فيهما ، زمانا أو مكانا . على حين ساق « ابن حجر » المعاصِر للبدر العيني ، الخبرَ على صورة أُخرى لا صلة لها بالرحلة البغدادية [1] .

ونسأل أبا العلاء عن هذه المطاردة من الفقهاء فلا نجد لديه إشارة إليها أو كلمة عنها . وإنما الحديث عنده عن مطاردة أُخرى من نفسه ، ألحت عليه في الإياب ، وحاول عبثا أن يطاولها أو يتجاهلها ، ثم لم يجد مفرا من الاستسلام حين لم تعد تجدي مطاولة أو عناد .

(١) في (لسان الميزان) ، نقلا عن الحافظ السلفي .

وأملى في رسالته إلى أهل المعرة ، عند مُنصَرَفه من العراق :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتابٌ إلى السكَنِ المقيم بالمعرة شملهم الله بالسعادة ، من أحمد بن عبد الله بن سليمان . خَصَّ به من عرفه وداناه . سلَّم الله الجماعة ولا أسلمها ، ولمَّ شعثها ولا آلمها .

« أما الآن فهذه مناجاتي إياهم منصَرفي عن العراق ، مجتمع أهل الجدال وموطن بقية السلف . بعد أن قضيت الحداثة فانقضت ، وودَّعت الشبيبة فمضت ، وحلبت الدهرَ أشطُرَه ، وجرَّبت خيره وشره ، فوجدت أوفَق ما أصنعه في أيام الحياة ، عُزلةً تجعلني من الناس كبارح الأروى من سانح النعام ،وما ألَوْتُ نصيحة لنفسي ولا قصَّرت في اجتذاب المنفعة إلى حيِّزي ، فأجمعت على ذلك واستخرتُ الله فيه بعد جلائه على نفرٍ يوثق بخصائلهم ، فكلهم رآه حزما وعدَّه إذا تم رشدا .

« وهو أمرٌ سُرِي عليه بليلٍ .... ليس بنتيج الساعة ولا ربيب الشهر والسنة ، ولكنه غذيُّ الحقب المتقادمة وسليل الفِكر الطويل ....

وبادرت إعلامهم ـ السكنَ المقيم بالمعرة ـ ذلك ، مخافة أن يتفضل منهم متفضل بالنهوض إلى المنزل الجاريةِ عادتي بسُكناه ليلقاني فيه ، فيتعذر ذلك عليه ، فأكون قد جمعت بين سَمِجَيْن : سوء الأدب وسوء القطيعة . ورُبَّ مَلومٍ لا ذنب له . والمثلُ السائرُ : « خلِّ امرأً وما اختارَ » .

«وما سمحت القَرونُ بالإياب حتى وعدتُها أشياء ثلاثة : نبذةً كنبذة فتيق النجوم ، وانقضابا عن العالَم . » وثباتا في البلد إن حالَ أهلُه من خوفِ الروم .

« وأحلِف ما سافرت أستكثر من النشب ولا أتكثر بلقاء الرجال .

ولكنْ آثرتُ الإقامة بدار العلم فشاهدت أنفسَ مكانٍ لم يسعف الزمن بإقامتي فيه ، والجاهلُ مغالِبُ القدَرِ ، فلهيت عما استأثر به الزمان .

ويُحسن الله جزاءَ البغداديين ، فلقد وصفوني بما لا أستحق ، وشهدوا لي بالفضيلة على غيرِ علم ، وعَرضوا عليَّ أموالهم عرضَ الجِدِّ؛ فصادفوني غيرَ جَذِلٍ بالصفات ، ولا هَشٍّ إلى معروف الأقوام . ورحلتُ وهم لرحيلي كارهون . وحسبيَ اللهُ وعليه يتوكل المتوكلون » .

والرسالة صريحة في الكشف عن مطاردة من نفسه ـ لا من فقهاء بغداد ـ بدأت من زمن بعيد كأنه الحقب المتقادمة . وقد طال عناؤه بها وتفكيره فيها ، حتى أجمع أمره على عزلة استخار فيها اللهَ بعد أن استشار الصحاب ، وحدَّدَ قراره لنفسه : نبذة العزلة والانفراد ، وانقضابا من العالم لا يتزوج ولا يلد ، وأن يلزم داره في بلده ، وإن تحول أهلها عنها مخافة الروم الذين كانوا يجوسون خلال إقليم الشام غُزاةً طامعين ...

ورحلَ ، والبغداديون لرحيله كارهون لا مطاردون . شهدوا له بالفضيلة وأحسنوا الرأي فيه فصادفوه غير جذلٍ بجميل الصفات ، وعرضوا عليه أموالهم فصدَّ عنها في إباء لا يهش لمعروف الناس . وستقرأ في رسالته إلى خاله ، بعد قليل ، أن البغداديين أكرموه وأفردوه بحسن المعاملة وتشبثوا به وأظهروا الحزن لفراقه ، وودَّعوه باكين . وقد شقَّ عليه الموقف الصعب ، وحزن على الفراق المحتوم ، فما مَلَكَ بعد أن جرع كأْس البَيْن إلا أن أنشد مودعا بغداد وأهلها ، حين بعُدت الديار وشط المزار :

نبيٌّ من الغربان ليس على شرع
يخبرنا أن الشعوب إلى الصـدْعِ
أُصدِّقه في مريـةٍ وقـد امترت
صحابة موسى بعد آياتـه التسع
كأن بِفِيه كـاهنا أو منجمـا
يحدثنا عمـا لقينا من الفجـع
أودعكم يا أهل بغداد ، والحشا
على زفراتٍ ما يَنين من اللـذع
وداعَ ضنـاً لـم يستقل وإنمـا
تحامَلَ من بعد العِثار عـلى ظَلع
فبئس البديل الشام منكم وأهله
على أنهم قومي وبينهـمُ رَبعـي
ألا زودوني شربة ولـو أنـني
قدرت ، إذن أفنيت دجلة بالجرع
أبِيتُ فلم أطعم نقيعَ فراقكـم
مطاوعةً ، حتى غُلِبتُ عـلى النشع
لبست حداداً بعدكـم كـلَّ ليلة
من الدهْم ، لا الغُرِّ الحسانِ ولا الدرع
أظن الليالي وهي خودٌ غـوادر
بِردِّي إلى بغداد ضيقـةَ الـذَّرْع

وكان اختياري أن أموتَ لديكمُ
حميدا ، فما ألفيتُ ذلك في الوُسع
فليت حِمامي حُمَّ لي في بلادكم
وجالت رِمامي في رياحِكم المسع
فدونكم خفضَ الحيـاة فإننـــا
نَصَبْنا المطايا بالفلاةِ على القطع
. . . . . .

وحدَّد « أبو العلاءِ » تاريخ انسحابه من بغداد بالسنة والشهر واليوم : « عام أربعمائة ، لستٍّ ليالٍ بقين من رمضان »[1] .

فأعفى مؤرخيه وأعفانا من حيرة اختلاف أو من إهمال وإغفال .

كما حدد طريق الإياب بتفصيل يغني عن مزيد مراجعة وبحث : سلَك طريق الموصل وميافارقين ، ثم نزل بالحسَنية ووصل بعدها بمدينة آمد . ومنها اتجه إلى المعرة مارًّا بحلب الشهباء دون أن يدخلها ، وفيها أخواله بنو سبيكة ، إصرارا منه على ما عقد عليه العزم من عزلة وانفراد .

وكانت الرحلة ـ فيما وصَفَ ـ شاقة مضنية ، جمعت إلى وعثاء السفر وأخطار الطريق وغوائل السبيل ، أثقالَ انكساره وشواغل همومه النفسية ؛ وأعوزها الرجاء الذي كان يحدوه في طريق الذهاب ، فيعينه على مشاق الرحلة .

وبعض مؤرخيه يذكر من حديث إيابه ، ما سبقت الإشارة إليه

(١) في « رسالته إلى خاله أبي القاسم » عند وصوله إلى المعرة .

من أنه مرَّ بموضع في الطريق فطأْطأَ رأسه . ولما سئل في ذلك قال : أما هاهنا شجرة ؟

وكان قد مضى على مروره الأول بهذا الموضع عام وبعض عام ، وما يزال يذكر قولَ قائده في طريق الذهاب : « طأْطئ رأسك » .

وهذا هو يطأْطئها من تلقاء نفسه ، فيسمع أن الشجرة اجتثت من موضعها الذي كانت فيه ، فما عاد بحاجة إلى أن يحترس .

لكن آثار هزيمته لم تجتث من نفسه ، فليطأْطئ رأسه مُقِرّاً بها مستسلما لما تصنع به الأيام والليالي ،

بغير عنادٍ ولا مكابرة .

وإذا ارتاب مرتابٌ في خبر الشجرة ، وحمله على إضافات الإخباريين فيما اشتهر من قوة ذاكرته ، وقد جاء الخبر في سياقها ،

فإن لدينا على كل حال ما يغنينا عن نقد الخبر ، بحديث أبي العلاء عن رحلته ، كاشفا عما كان يضنيه ويئوده من آثار الهزيمة والانكسار ، بعد طول مجاهدة أوصلتْه إلى بابٍ مسدود ، فليس يملك إلا أن ينكفئ راجعا من حيث جاء . وليأْخذْ نفسه باليأْس والقنوط ، فقد آن لها أن تعود إلى مبارِكها الهابطة . ويا ويلَه منها إن لم ترحمه من عقم الرجاء وضلال المقاومة والعناد ! لقد أعيتْه وهو في أشر الشباب وبَطر الفتوة ، فماذا عساه أن يملك لها في وهَن الشيخوخة وعجزها ؟ وتأَبَّت عليه بعصيانها منذ شبَّ فتيّاً إلى أن دبَّ كهلا وفات الأوان ...

أو بنصِّ كلماته يحدث نفسه ، في رسالته إلى خاله أبي القاسم علي :

« وجدتُ بغداد كجناح الأَخيَل ، حسن وليس فيه ما حُمِل :

إن العراق لأَهلي لم يكن سكَنـا

والبابُ دون أبي غسانَ مسدودُ

« لنفسي أقول : أعييتِني بأَشرٍ فكيف بدردر ؟ وعصيتِني من شَبَ إلى دَبَّ . ليس بعُشِّك فادرُجي ، هذا أحقُّ منزلٍ بتركٍ . الصيفَ ضيعتِ اللبنَ . الربيعَ أغفلتِ الكمأَة ، وعلى المفازة أَرَقْتِ السقاء ؛ عُودي إلى مبارِكِكِ ...

وكنت ظننت أن الأَيام تسمح لي بالإقامة هناك ، فإذا الضارية أَحجأُ بعراقِها ، والأَمَةُ أَبخَلُ بصربتها ، والعبدُ أَشَحُّ بكُراعِه ، والغراب أَضَنُّ بتمرته .

ووجدتُ العلمَ ببغداد أكثرَ من الحَصَا عند جمرة العقبة ... ولكنْ ، على كل خير مانع ...

إذا لم تستطع شيئا فـــذَرْه وجــاوزه إلى مــا تستطيــع

يكفيك ما بلَّغك المحَلَّ . إن عجز ظِلٌّ عن شخصِك فلا يعجزَنَّ عن عضوٍ منك ....

« وكلما عرَضوا عليَّ حاجةً أعرضتُ عن تكليفِ المشقة ، لأَني أعتقد حكمة زُهير :

ومَن لا يزل يستحمل الناسَ نفسَه

ولا يُعفِها يوما من الذلِّ يُسأَمِ

« ... ولو علمتُ أني أرجعُ على قروائي ، لم أتوجه لهذه الجهة . ولكن البلاء موكَّلٌ بالمنطق ... لا يدري الرجلُ بم يولع هَرِمُه ، ولا إلى

أي أَجَمةٍ يسوقُه جَدُّه : « ولو كنتُ أعلم الغيبَ لاستكثرتُ من الخيرِ وما مسَّني السوءُ » .

« ورعايةُ الله شاملة لمن عرفته ببغداد . فلقد أفردوني بحسن المعاملة وأثنوا عليَّ في الغَيبة ، وأكرموني دون النظراء والطبقة . ولما آنسوا تشميري للرحيل وأحسوا بتأهبي للظعن ، أظهروا كسوفَ بالٍ وقالوا من جميلٍ كلَّ مقال ، وتلفعوا من الأسف بِبُردٍ قشيب وذرفتْ عيونُ أشياخٍ شيب . فلا إلٰه إلا الله ، أي نابتةٍ ليست لها راعية !

« ... وأمروني لرغبتهم في صقبي منهم ، بأُمورٍ تنهى عنها القناعةُ وتكف دونها العادةُ :

على حين أن ذكَّيْتُ وابيضَّ مفرقي
أُسامُ الذي أعييت إذ أنا أمرَدُ

****

أماويَّ ما يُغني الثراءُ عن الفتى
إذا حشرجتْ يوما وضاق بها الصدرُ

« واللهُ يحسن جزاءهم ؛ إن كان ما فعلوه حفاظا فهو منَّةٌ عظيمة ، وإن كان نفاقا فهو عشرة جميلة . وانصرفت وماءُ وجهي في سِقاءٍ غيرِ سَرِب ، ما أرَقْتُ منه قطرةً في طلبِ أدبٍ ولا مال . ومنذ فارقت العشرين من العمر ، ما حدثتُ نفسي باجتداءِ علمٍ من عراقي ولا شامي : « من يَهدِ اللهُ فهو المهتدِ ومَن يُضلل فلن تجد له وليّاً مرشدا » .

« والذي أقدمني تلك البلادَ مكانُ دارِ الكتب بها :

ولستُ وإن أحببتُ مَن يسكن الغَضَى
بأَوَّلِ راجٍ حاجةً لا ينالُها
شرَفاً لذلك منزلا ، وللساكنين به نَفَراً ، ولماءِ دجلة واديا ومشربا :
وإني وتهيامي بعَزَّةَ بعدما
تخلَّيتُ من حبلِ الهوى وتَخَلتِ
لكالمبتغي ظِلَّ الغمامة كلما
تبوأ منها بالمقيلِ اضمحلَّتِ
« وكنت إذا خبَّرتُ رجلا بمسيري بانت فيه كآبة ، وبدَت عليه كبوة . فكتمتُ ذلك عنهم كتمانَ المرأة ضُرَّتَها بالغيبِ ما في جسدها من سوءٍ وعيب . فلما علق حرباء البيْنِ تنضبتَه ، ووقف صرد الفراق موقِفه ، كنت وإياهم كأبي قابوس [النعمان بن المنذر] وبني رواحة :
قال لهم خيرا وأثنى عليهمُ
وودَّعهم وداعَ أنْ لا تلاقِيا
« وسرتُ عن بغدادَ لستٍّ بقين من شهر رمضان ، سيرا تخطُّ إبِلُه وتئطُ نسوعُه وتوقَعُ الغرق سُفنُه ... الغمرات ثم ينجلين !
ومررتُ بطرف الشهباء لأني سلكتُ طريقَ الموصل وميافارقين ...
وردتُ مياهاً مِلحةً فكرهتُها فسُقيا لأهلي الأوَّلين ومائيا
... ولما نزلنا بالحسنية ، تساوى حاملُ المالِ وحاملُ الرمال ، وقلَّ بلاءُ الغادي أين قالَ [قيلولةً] والرائح اين عرَّس وبات . فلم نزل كذلك حتى بلغنا آمدَ ، ثم عادت السبيلُ إلى غوائلها ...
« ولما فاتني المقامُ بحيث اخترتُ ، أجمعتُ على انفرادٍ يجعلني

كالظبي في الكناس ويقطع ما بيني وبين الناس ، إلا مَن وصلني الله به وصلَ الذراع باليد والليلة بالغد ... » .

***

وأبو العلاء قد سجل هنا ، وفي رسالته الأُخرى إلى أهل المعرة ، شهادةَ العاصمة له بالفضل والعلم ، وإفراد أهلها إياه بحسن المعاملة وجميل الثناء ، وإكرامه دون النظراء ورجال طبقته من أعيان العلماء الأُدباء في جيله .

مما يؤكد لدينا أن رحلته لم تكن لهذا قصداً ، وإنما كانت الشهادة المرجوة بعضَ ما تعلَّق به في معركته مع نفسه ، عندما أراد أن يستبين حقيقة موقفه في مفترق الطرق ، وأن يحسمَ الشكَّ باليقين فيما خامره بعد موت أبيه من تردد وحيرة ، التماسا لإحدى الراحتين .

ولو كانت شهادة بغداد كل غايته ومبتغاه ، لأَرضاه ظفره بها . أو لو كانت خزائن الكتبِ كلَّ ما تعلق به في طريق الذهاب ، لكفاه أن أَباحت له كنوزها وذخائرها ، ولم يخرج من دار العلم مهزوما ، زريَّ الأَماني ، يطارِدُ بعضُه بعضا ...

****

لم ينصرف أَبو العلاء عن بغداد زهداً فيها وبُغضا لها كما زعم بعض دارسيه ، ولا خرج منها طيبَ الخاطر لفراقها كما وَهموا وأَوهموا ، وإنما أَحبها بصريح اعترافه ، وتمنى لو أَسعفه الزمان على المقام بها ، لكن أَعوزته الحيلة والوسيلة ، وأَدرك بعد فوات الأَوان أَنه لم يتزود في الشطر الأَول من حياته لمجتمع العاصمة ، بالزاد الصالح والعدة

الملائمة . فلقد شب عن الطوق وما عاد في استطاعته أن يغير طبعه ويطوِّع نفسه لغير ما خُلقت له ، ويروضها على غير ما جُبلت عليه ، وهو كما قال في رسالته إلى خاله : « وحشي الغريزة إنسي الولادة » وقد حاول البغداديون أن يكلفوه ما ليس من طبعه ، وأرادوا أن يحملوه على أمور « تنهى عنها القناعة وتكف دونها العادة » وسامته بغداد ، وقد جاوز سن الفتوة والشباب ، ما أعياه أن يُسامَ وهو أمرد ،

وسيظل يذكر بغداد ويلتفت إليها من وراء أسوار عزلته ، ويحن إلى مَن ترك هناك من صفوة الأصحاب ، فيقول من قصيدة أرسلها إلى صديقه « أبي القاسم بن المحسن التنوخي » :

يا عارضا راح تحدوه بوارقُـه
للكرخ سُلِّمتَ من غيثٍ ونُجِّيتا
لنا ببغدادَ مَن نهوى تحيتَـه
فإن تحملتَها عنـا فحُيِّيتـا
يا ابن المحسِّن ما أُنسيتُ مكرمةً
فاذكر مودتنا إن كنـت أُنسيتا
سُقياً لدجلة ، والدنيـا مفرَّقـة
حتى يعود اجتماع النجم تشتيتـا
وبعدَها لا أُريد الشربَ من نهَـرٍ
كأنَّما أنا من أصحاب طالوتا [1]

(١) يشير إلى الآية الكريمة : « فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني ... » البقرة : ٢٤٩ .

رحلتُ لم آتِ « قرواشا » أزاوله

ولا « المهذبَ » أبغي النَّيْلَ تقويتا[1]

والموتُ أحسنُ بالنفسِ التي أَلِفت

عزَّ القَناعة من أن تسأَل القُوتا

بَتَّ الزمانُ حِبالي من حِبالكـمُ

أعزز عليَّ بِكونِ الوصلِ مبتوتا

أعدُّ من صلواتي حفظ عهدكـم

إن الصلاةَ كتابٌ كان موقوتا[2]

****

ومن قصيدته إلى خازن دار العلم ببغداد :

رجوتُ لهم أن يقرُبوا فتباعدوا

وأن لا يشطوا في المزار ، فقد شطُّوا

خليليَّ لا يَخفى انحساري عن الصِّبا

فحُلاَّ إساري قد أضرَّ بيَ الربطُ

ولي حاجة عند العراق وأهلِـه

فإن تقضياها فالجزاءُ هو الشرطُ

سَلا علماءَ الجانبيـن وفِتيـةً

أبنوهما حتى مفارقُهم شُمـطُ

---

(١) قرواش : والي أمر بغداد . والمهذب : وزيره .

(٢) تضمين للآية الكريمة : « فإذا قضيتّم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم ، فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة ، إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » النساء : ١٠٣ .

obeikandl.com

أعندهمُ عِلـمُ السلُـوِّ لسائـلٍ
به الركب لم يعرف أماكنه قطُّ
وهل يُنشِطنّي من عقالي إليكـمُ
رضى زمني ، أم كلُّ شيمتِه سُخطُ
وإن خلَطتـني بالتـرابِ منيـتي
فبعضُ ترابي من مودَّتِكم خلطُ

وأملى ، بعد سنين طوال ، ردّاً على رسالة صديق في بغداد ، يُذكره بأيامِ الودِّ فيها ، حين كان « بالقطيعة » منزله ، على شط دجلة :

أذاكِرٌ أنت عصراً مرَّ عندك لي
فليس مِثلي بناسٍ ذلك العصرا
أيامَ واصلتني ودّاً وتكرمـة
وبالقطيعة داري تحضـر النهـرا
والآن أشرح أمري غير معتمـد
فيه الإطالة ، كيما تعلم الخبرا
مُدَّ الزمانُ وأشوتـني حوادثـه
حتّى مللتُ وذمَّت نفسيَ العُمـرا
وحُلتُ كُلّي سِوى شيبٍ تجاوزني
ولم يُبيض ، على طول المدى ، الشَّعرا
جنيتُ ذنبا وألهى خاطري وسَنٌ
عشرين حولا ، فلما نُبِّه اعتـذرا

سوف يشيخ إذن ـ وإن تأخر شيبُ شعرِه ـ وفي أعماقه شوق إلى بغداد يطويه . ويظن أنه نسِيَ على تقادم الحقب عهدَ مودةٍ مع أصحابٍ له هناك فارقهم ، وجفاهم لكي يتحقق له ما ابتغى من راحة السلو والنسيان ، ثم لا يكاد يأتيه كتابُ أحدهم حتى يثير مطويَّ مواجده ويهيج كامن ذكرياته ، ويشده بعد عشرين عاما ، إلى ماضٍ ببغداد ولَّى وراح !

****

فماذا صنعت بغداد بمن قصد إليها في عز رجولته ، مشوقا متعلقا بأذيال الرجاء مستبسلا في المقاومة ، فردَّته ، على حبه لها ، إلى عزلة صارمة ، مهيض الجناح مكسور الخاطر ضائع الحيلة ؟

لم تفعل شيئا إلا أنها ردَّته إلى نفسه ، ونبهت وجدانه من غفلة الوسَن ، وكشفت له عن عقم محاولته الهروبَ من ذاته !

ولمَّ شتات ذاته وأشلاء أمانيه الزرية ، وركب راحلته مُلقِياً زمامها إلى من يقوده عائدا به من حيث جاء .

وأمضى أيامه ولياليه في طريق الإياب ، يجتر ذكريات مقامه ببغداد ، ويطيل التفكير فيما هو بسبيل أن يستقبل من عزلة وقيود .

موزع الخواطر بين حزن على فراق « أنفس مكان لم يسعف الزمان بإقامته فيه » ،

وشوقٍ إلى الراحة من أوهام التحدي وشطط المكابرة وأكاذيب المنى ،

ولهفة على لقاء أمه الغالية التي بلغه أنها مريضة في المعرة ...

ويرتجف قلبه بين أضلعه إشفاقا من المخبوء له في الغيب المضمر . وربما ألم به الكرى فساورته هواجس رؤى يقيسها على ما كان من « سوء بخته » فلا يرى في الجميل منها إلا أضغاث أحلام . أما المفزع المخيف فنذير شرٍّ واقع لا محالة ، أو كما قال :

إلى الله أشكو أنني كـلَّ ليلـــة
إذا قمت لم أعدم خواطرَ أوهـام
فإن كان شرا فهو لا بد واقع

****

وإن كان خيرا فهو أضغاث أحلام

حتى هواجس الكرى ، لم يفته رصدها وتسجيلها ...

ولشدَّ ما تشاءم ـ وقد بلغه مرض أمه بالمعرة ـ من رؤياه أن أحد نواجذه سقط ! وإن لم يصح عنده أن تضل الأحلام فيكون سقوط ناجذ ، ما أهونه ، نذيرا بمصاب في أمه ، ما أهوله !

ولم يستطع مع ذلك أن يمحو الحلم من ذاكرته ، وتركزت خواطره حول أمه ، وهو يقطع المرحلة الباقية من طريق الإياب ....

****

مَوتُ الأُم

« ... يا سلوةَ الأيام موعدُكِ الحشرُ . موعدٌ والله بعيد ... وحزني لفقدِها كنعيم أهلِ الجنة كلما نَفَدَ جُدِّد . وشرحُه إملالُ سامع وإفناء زمان»

أبو العلاء

(من رسالته إلى خاله)

مضتْ وقد اكتهلتُ فخِلتُ أني
رضيع ما بلغتُ مدى الفِطـامِ
سألتُ متى اللقاء فقيـل حتى
يقوم الهامدون من الرجـامِ
فليت أُذِينَ يوم الحشر نـادى
فأجهشت الرمـامُ إلى الرِّمامِ

(سقط الزند)

obeikandl.com

آب الضرير إلى منزله مثخنا بالجراح ، ليجد في انتظاره طعنة مصمية أعدتها له الدنيا تحيةَ الوصول !

غال الموتُ أُمَّه قبل وصوله ، فرحلت عن الدار بلا وداع ...

وإذا لم يكن قد بقي في كيانه موضعٌ لسهم ، فإن الطعنة الجديدة هزت الكيان الجريح بفرط ضراوتها ، وردَّته أشبه بطفلٍ رضيع يتيم ، فقد مناط وجوده ووسيلة بقائه ...

وليت الصدمة مع ذلك أذهلته ، لينجو بالذهول من وطأة ألمه الساحق وأساه الفادح ! لقد تلقى المسكين الصدمة بوعيٍ غير مخدَّر ، وأبَى أن يتقبل في فقيدته العزاءَ ، وأجهشت أشلاؤه في إثر الراحلة :

سمعتُ نعيَّها ! صمى صمـامِ
وإن قال العواذلُ لا همـامِ
وأمَّتْـني إلى الأَجـداث أُمٌّ
يعز عـليَّ أن سارت أمـامـي
وأكبِر أن يرثيهـا لسانـي
بلفظٍ سالـكٍ مجرى الطعـام
كأن نواجذي رُدِيَـتْ بصخـرٍ
ولم يمررْ بهن سوى كـلام
مضتْ وقد اكتهلتُ فخلتُ أني
رضيع ما بلغت مدى الفطـام
فيا ركب المَنونِ أمـا رسولٌ
يبلـغ روحَهـا أرجَ السلام

سألتُ متى اللقاء ؟ فقيل حتى
يقوم الهامدون من الرجام
ولو حَدُّوا الفراقَ بعُمرِ نسرٍ
طفقت أعدُّ أعمارَ السِّمام
فليت أذين يوم الحشر نادى
فأجهشت الرمامُ إلى الرِّمام

****

ولا نعلم على وجه اليقين ما إذا كان أبو العلاء قد زار قبر أُمِّه قبل أن يدخل محبسه ، أم أنه بدأ ينفذ قراره بلزوم دارِه من لحظة وصوله إلى المعرة ؟

وقد نستبعد أن يصم النعي مسمعه إثر الوصول ، فلا يسعى إلى قبر فقيدته يُحيي رمامَها ويودعها إلى لقاء لا يدري متى يحين أوانه ، إلا أن يكون قعوده عن زيارة القبر ، تعبيرا قاسيا عن يأسٍ بائس ، وشعورٍ بعُقم المسعى إلى جَدث أصمَّ يضم بقايا الجسد الهامد لمن كانت ملءَ حياته ، فما عادت تحس طيف زائر أو تسمع دعاءَ محزون ونشيجَ مودِّع مفجوع ، وإنه ليقول :

وقفتَ على أجداثهم وسألتهم
فما رجعوا قولا ، ولا سألوكا

****

ولم يسمعوا قولا ، أمِن صممٍ بهم
ولم يفهموا رَجْعا كأنهم خُرسُ

****

إذا الحــيُّ أُلبِسَ أكفانَــــه
فقــد فــني اللبسُ والــلابسُ
ويَبــلى المحيا ، فــلا ضاحــكٌ
إذا سَرَّ دهر ، ولا عــابِسُ
ويُحبَس في جــدثٍ ضيــق
وليس بمطلقــه الحــابسُ
يجــاور قومــا أجــادوا العطــا
تِ ومــا فيهم أحــدٌ نــابسُ

****

« سلَّم الله عليكم ،أهلَ ديارٍ لا يشعرون بتبلُّجِ الصبح ولا ترحل النهار . أشتاق إليكم وإلى من أشتاق ؟ لا الأرواح متكلمة ولا الأجساد ملتئمة ، ولا المنازلُ برِحابٍ ....

« كيف أصبحتم، أهلَ المنازل الدارسة ؟ إن ما أصابكم للخَطبُ الجليل ... يهتف بكم الصائحُ فلا يجاب ... « ما فعل الترابُ بالجثث ؟ فعَل بها فعلَ المجتث ... » .

(الفصول والغايات)

****

ما كاد يدخل منزله الذي قرر أن يكون له سجيناً ما عاش ، حتى بدأ فأملى في رسالة سيَّرها إلى خاله « أبي القاسم » بحلب ، كلمات ممزقة مشردة الالتفات ، تتوهج بلهب الجمر الذي كان يَكويه ، ندما على ما أضنى أمَّه من أسىً لسفرِه إلى بغداد ؛ وحُزناً لفقدها يوقن أنه سيظل

يتجدد كلما نفد ، حتى يوم الحشر الذي ضربه للساوٍ موعدا ، ويا له من موعدٍ بعيد ...

« كتابي ، أطال الله بقاءَ سيدي ... من معرة النعمان ، ولكل نبأ مستقر . ورَدتُها بعد سآمة ورودَ « كعب بن مامة » فإنا للهِ وإنا إليه راجعون ، وله الحمدُ ممزوجا به الدمعُ ، مُسْتَكّاً له من الوجد السمع . وصلى الله على سيدنا محمد وعترته ، صلاة يثقل بها لساني حزنا ، وترجح في المحشرِ قدرا ووزنا . ثم أذكر قصصي بعد ذلك :

ألا ليتـــني والمرءُ مَيْـــــتُ ... وما تُغني عن الحِدثانِ ليتُ

« رحمكِ الله من ساكنةِ رمسٍ ، أصبحت حياتُك كأمس :

فإن ينقطع منكِ الرجاءُ فإنــه

سيبقى عليكِ الحزنُ ما بقي الدهرُ

« لا آمُل بَعدها خيرا ، ولا أزيد في المِحَنِ إلا إيضاعاً وسيرا :

صلى الإله عليكِ من مفقــودةٍ

إذ لا يلائمك المكــانُ البلقَــع

أنّى حللتِ ، وكنتِ جِدَّ فروقــة

بلدا يمر به الشجاعُ فيفــزع

****

لا بارك اللهُ في الدنيا إذا انقطعت

أسبابُ دنياكِ عن أسباب دنيانا

«ياسلوةَ الأيام موعدُك الحشرُ . موعدٌ واللهِ بعيد . لا سلوة حتى يثوب عَنَزِيٌّ إلى القرظة ، ويرجع النعمان إلى الحيرة ، ويُبعث نبيٌّ من مكة .

لو لم تكن الآجال زُبُرا لَوَجب أن أُقتَل بها صبرا ! على أني واللهِ قد أعلمتُها أني مرتحل وأن عزمي على ذلك جادٌّ مزمع ، فأَذِنَتْ فيه . وأحسبها ظنَّته مذقة الشارِب وميضَ الخالب ، ولِكلٍّ أجلٍ كتاب . وحزني لفقدها كنعيم أهل الجنة كلما نفد جُدِّد ! وشرحه إملالُ سامع وإفناءُ زمانٍ .... » .

****

كنعيم أهل الجنة ؟

ما أعجبها من كلمة في وصف الحزن المقيم المتجدد أبدا !

هل خان أبا العلاء ، في دُوار الصدمة ، أن يصف تجدد حَزَنه بعذاب أهل السعير ، وفاته أن يذكر في وصفه تجدده كلماتِ البيان القرآني المعجز : « وكفى بجهنم سعيرا . إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضِجتْ جلودُهم بدَّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » ؟

كلا ! لم يخنه التعبير قط ،

وإنما يغيب عن ذوي الحس الغليظ منا ، أن أبا العلاء كان يجد راحته في حزنه على أُمه ، ويطيب نفساً لهذه النعمة ، فيرى أن إبلاءَ جسمه في طلبها والتعلق بها ، إبلالٌ مما يضنيه من أوصاب وأشجان ، ويروعه أن يتصور إمكان نفادِ نعمة حزنه ، بسلوٍّ لا يعني عنده إلا العقوق والخيانة ، وتبلُّدَ الإحساس وسوادَ القلب وموتَ الضمير ، وهو الذي أوجب أن يُقعَلَ بأُمِّه التي أهلكها بسفره إلى بغداد ، لولا أن الأَجلَ قدَر مكتوب !

ولست أقول هذا تفسيرا من عندي أبرر به وصفَه لحزنه بأنه « كنعيم أهل الجنة ، كلما نفَدَ جُدِّد » بل قاله أبو العلاء نفسه ، وقد تذكر رؤياه التي سلَفت ، وتحقق من صدق تأويلها في صرامة الواقع ووعي اليقظة ، لا في خاطرات الوهم وهواجس الأحلام . ويفتقد العزاء – وسيظل يفتقده على تطاول الأيام – ولا عزاء إلا فيما يجد في حزنه على أمه من راحة ونعمة . ويلتمس البرء من أوصابه بالموت حسرةً عليها ، وليس يبالي إذا جاءته المنية أين تكون حُفرته ، غير أن مما يؤنس قلبَه الحزين ، أن يُقال له إن آله سوف يدفنونه إلى ظلٍّ من قبرِ فقيدته الثاوية في ثَرى المعرة ، والتي ما فتئ طيفها يُلم به على مَر سنين :

خلوٌّ فؤادي بالمـودةِ إخـــلالُ
وإبلاءُ جسمي في طِلابكِ إبلالُ
ولي حاجة عند المنية : فتكُهـا
بروحيَ ، والأهوالُ – مذْ كنَّ – أهوالُ
إذا مت لم أحفِل ، أبالشام حفرة
حوتني أم ريم بريمـان منهـالُ
على أن قلبي آنِسٌ أن يقال لي ..
إلى آلِ هذا القبرِ يدفنُكَ الآلُ
دعَا اللهُ أمّاً ليت أني أمامهـا
دُعيتُ ولو أن الهواجرَ آصـالُ
مضَتْ وكأني مُرضَعٌ ، وقد ارتقت
بيَ السنُّ حتى شكل فودَيَّ أشكالُ

أراني الكرى أني أُصبت بناجذٍ
ألا إن أحلام الرقـاد ضـلالُ
أجارحتي العظمى تُشبِّـه ساهيا
بِسِنٍّ لها في ساحة الفم أمثـالُ
وبين الردى والنوم قُربى ونسبة
وشتان برءٌ للنفـوس وإعـلال
إذا نمتُ لاقيتُ الأحبَّةَ بعدمـا
طوتْهم شهورٌ في التراب وأحوالُ

****

بموتِ أمِّه ، بدأ إحساسه العميق بأنه أمسى أشبه بغُصنٍ مجتَثٍّ مُلقى ، بغير جذور ولا فروع : لقد كان من بين ما قرَّ عليه عزمه وهو ينسحب إلى محبِسه ، ألا يتزوج ولا يلد . وها قد مضى أبواه فانقطع عن جذوره ، ولن يلبث ماء الحياة أن يجف فيه وينضب ، فيصير إلى حذفٍ وإدغام :

فصرَّفني وغيَّرني زمانٌ سيعقبني بحذفٍ وإدغام

ويُلح هذا الخاطر على وجدانه في طور عزلته ، فيتمثل نفسه في (اللزوميات) نبتاً مرَّ عليه يومٌ وليلة منفِضان من الزاد ، فاستأصلاه جزّاً :

كأنِّيَ نَبْتٌ مَرَّ يومٌ وليلـةٌ عليَّ وكانا مُنفضين فجَزَّاني

****

ولبث حزنه على أمه كلما نفد جُدِّد كما قال . وأوغل الجرح في

أعماقه تنكؤه الرزايا تُلم به من حين إلى حين . ولم يمضِ على مصابِه في أُمه غير بضع سنين ، حتى غال الموت أخاه الأصغر « أبا الهيثم عبد الواحد » سنة خمسٍ وأربعمائة .

وكان أبو الهيثم لأبي العلاء أخا حبيبا وصديقا عزيزا غاليا . وقد مرت بنا قصيدته المؤثرة في رحلة أبي العلاء إلى بغداد ، حيث كاد الحزن يتلفه أسىً لفراق أخيه وحذارا عليه . وهذا هو أخوه قد عاد إلى المعرة ، فلم يلبث الشمل أن تمزق ، ولا رجاء هذه المرة ، في لقاء .

وحزن أبو العلاء حزنا مُرا على أخيه الصديق الذي اغتاله الموت شابا لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره [1].

وتراكمت من حول رهين المحبسين ، وفوق صدره ، أطلالُ ما تقوض من بيت أسرته وما انهار من دنياه ، يتردد بينها ملءَ مسمعه ، صدىً من أبياتِ أخيه الراحل ، وقد مرَّ ذات يوم برجلٍ يقلع حجارة من أطلال « سياث » المعرة القديمة :

مررتُ برَبعٍ من سياث فراعني
به زجَلُ الأحجار تحت المعاولِ
أمُتلفَها شُلَّتْ يَمينُك خَلِّها
لمعتبرٍ أو زائر أو مُسائلِ
منازل قومٍ حدثتنا حديثهم
فلم أرَ أحلى من حديث المنازل [2]

****

(١) ابن العديم : الإنصاف والتحري ٤٩٤/ تعريف .

(٢) فيما روى ابن العديم، بإسناد إلى أبي المجد الأخ الأكبر لأبي العلاء وأبي الهيثم، أن أبا =

وتتابع الراحلون من الأهل والأحباب ، إلى مقابر الموتى ومجتمع الرمم .

وصوت أبي العلاء في أثرهم ، يتساءل في شجن وأسى : كيف لم يتلفه الحزن على أهل الصالحين :

« يا قلبُ ، لعل أسْوَدَك زِنجيٌّ من ولد حام ... ألا تبتئس لأولِ من فعل معك الجميل ؟ ألا تجزع لتقوُّضِ الأقربين ؟ يا شِمالُ ، ألم يحزنكِ شللُ اليمين ؟ أقمت وتحمل الناسُ وإن لحاقي بالظاعن لَوَشيك . عند الله أحتسب ما رُزِئتُ من أهلٍ ولقيتُ من همٍّ كاد الغربيب له يشيب وتعبٍ رسخَ ألمُه في الأعضاء ...

« يا معشر أهلنا الصالحين ، بئس القومُ نحن ! لم نوفكم الواجب من الوفاء : شربنا بعدكم الباردَ ولبِسنا ناعمَ اللباس ، وأظلتْنا الجدُرُ وأفنيةُ الدُّورِ . لو كنا أهلَ حِفاظٍ عِضْنا بَعدَكم النُّطَفَ العِذاب ... » .

(الفصول والغايات)

ويجأر في (اللزوميات) :

لعمري لقد وَكَلَ الظاعنــون بقلبيَ نجماً بطيءَ الغــروب
أقول وقد طال ليلي عـــليَّ أما لِشبابِ الدجى من مشيب ؟

••••

= الهيثم كتب هذه الأبيات من شعره ، على جدار الحائط المهدم .

وقد جاء بها ياقوت ، دون إسناد ، في بلدة سياث بمعجم البلدان « مما أنشده القاضي أبو يعلى المعري » .

والإنشاد لا يمنع أن يكون أبو يعلى قد أنشدها قراءة من كتابة أبي الهيثم ، على الجدار المهدم .

وما كان أطول ليله !

من سنته الرابعة ، بدأ ذلك الليل ، ممتدا إلى آخر العمر ...

وقد خيل إليه حينا ، في ميعة الصبا وأشر الشباب ، أنه مستطيع أن ينسخ ذلك الليل بنهار متألق الضياء ، وأن يجعل سُراه في داجي الظلمة ، تحليقا مع النجوم في مسبَح الفلَك ،

حتى آب من رحلته إلى بغداد وقد انجابت عنه غشاوة الوهم ، وأعوزه ما تعلل به في طريق الإياب من الأنس بقرب أمه .

وأوحش ليله ، وتتابعت أماليه ، ورسائله وقصائده ، من وراء الأسوار العازلة والظلمات المتراكمة ، تضيءُ لنا العالَم الفكري والوجداني لشاعرٍ إنسان ، كُشِف له الغطاءُ عن نفسِه ، واستروح إلى الإفضاء بمطويِّ همومه ومواجعه ، والكشف عن تأملاته ورؤاه .

وتلاشت نغمة الاستعلاء الجامح والطموح المشتط والمكابرة العنيدة ، لنسمعه يقول لنفسه في أول رسالة أملاها بالمعرة ، إلى خاله أبي القاسم :

« ليسَ بِعُشِّك فادرجي ! هذا أحقُّ منزلٍ بترك . الصيفَ ضيعتِ اللبنَ ، الربيعَ أغفلتِ الكمأةَ ، وعلى المفازةِ أرقتِ السقاء . عودي إلى مباركك ... » .

ويملي في (الفصول والغايات) بعد عودته من بغداد :

« ما أضيقَ عليَّ دنياي ! وأنتَ ، مولايَ ، المفزَعُ إذا بطلَ كلُّ احتيال ... » .

« إن جَناحي لمهيض . طِرتُ في الصعيد فوقعتُ غيرَ بعيدٍ ، والله مُنهِض المنهاضين » .

« الله ملك الملوك ، وأنا معترف مُقِرٌّ ، أن شهدَ الدنيا مَقِر وأن غنيَّها مفتقر . أعوزني فيها مسكنٌ آوي إليه ، وتبوأت الناسجةُ [العنكبوت] بين المثاب » .

« أضحك فلا ضحكتُ ، وأنا بالبكاء حقيقٌ ، مما كان ويكون ... »

« أرتفعُ والقدَرُ يُكبُّني ، يألبني دائما ويلبني . كم أستنسر وأنا من البغاث ! » .

وينشد من (اللزوميات) :

ربَّ متى أرحل عن هذه الدنـ
ـيا فإني قد أطلت المقامْ

لم أدرِ ما نجمي ولكنه
في النحس مذ كان ، جرى واستقامْ

فلا صديقي يترجَّى يدي
ولا عدوِّي يتخشى انتقام

والعيش سُقم للفتى مُنْصِبٌ
والموت يأتي بشفاء السقام

****

رماني مَن له وتَري وقوسي
وكَفِّي والسهامُ ، فكيف أرمي ؟

****

ملامٌ لنفسي حق عنـدي لمثلها
وكنتُ حقيقـا عندهـا بمـلامِ
وإظلامُ عينٍ بعده ظلمـةُ الثرى
فقل في ظلامٍ زِيد فوق ظلامِ

****

إن يرحل الناسُ ولم أرتحـلْ
فعن قضـاءٍ لم يُفـوَّضْ إلـيَّْ
خُلِّفتُ من بعد رجـالٍ مضَـوا
وذاك شرٌّ لـي وشرٌّ عـلـيَّْ

****

فيـا دارَ الخسار أَلِـي خَـلاصٌ
فأَذهبَ في الجنوب أو الشمالِ
وظلم أن أُحـاول فيك ربحـا
ولم أخرج إليـكِ بِرأسِمـالِ

. . . . . .